القواعِدُ الأسَاسِيَّة
في
عُلُومِ القُرآنِ الكَرِيم

تأليف

السيّد محمّد علوي المالكيّ الحسنيّ

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيْم

مقدّمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله, والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه الأئمة الهداة, والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الحشر والنجاة.

أما بعد: فهذه قواعد أصوليّة يجب على كلّ من أراد أن يتوسّع في قراءة كتب علوم القرآن معرفتها, لأنها مقدّمة لا بد منها للمبتدئين من طلاب العلم الشريف, وقد سميناها "القواعد الأساسيّة في علوم القرآن" نسأل الله تعالى أن ينفع بها كما نفع بأصلها المسمى بـ: "زبدة الإتقان".

وقد قرأت كتب هذا العلم على جملة من الأئمة, منهم: سيّدي الوالد علوي بن عباس المالكيّ الحسنيّ رحمه الله, وأرويه عنهم بأسانيدهم المفصّلة في كتب الأسانيد, ونذكر هنا سند أشهر كتب هذا الفن وهو "الإتقان" بسند سيّدي الوالد السيّد علوي, فقد قرأت عليه كتاب "الإتقان في علوم القرآن" للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي, والوالد قرأه على أبيه السيد عباس بن عبد العزيز المالكي الحسني, وهو قرأه على شيخيه الشيخ محمد عابد مفتي المالكيّة بمكة المكرمة والسيّد أبي بكر شطا المكي, عن شيخهما السيد أحمد بن زيني دحلان مفتي البلد الحرام, عن شيخه الشيخ عثمان بن حسن الدمياطي, عن الشيخ عبد الله بن حجازي الشرقاوي, عن الشمس محمد بن سالم الحفني, عن الشيخ محمد بن محمد البديري, عن الشيخ أبي الضياء علي بن علي الشبراملسي, عن الشيخ علي الحلبي, عن الشيخ علي الزيادي, عن السيد يوسف الأرمَيُوني, عن الحافظ الجلال السيوطي.

مقدمة في علوم القرآن التي هي مصطلح التفسير

اعلم أنه لا بد من معرفة مصطلح التفسير قبل قراءة التفسير ليكون الإنسان على بصيرة تامة منه, فيعرف المكّي والمدني, والناسخ والمنسوخ, وأسباب النزول, ويترتّب على ذلك فهم معاني الآيات.

ومن خاض التفسير قبل معرفة مصطلحه كان في حيرة, وقَلَّ نشاطه, والتبست عليه المقاصد.

علم التفسير: هو مأخوذ من قولهم: فسّرتُ الشيء إذا بينتُه, وسمي العلم المذكور تفسيرًا, لأنه يبيّن القرآن ويوضحه.

وحدّه: هو علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم, من جهة نزوله كمكّية أو مدنيّة, ونحوه كسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالأحكام, وغير ذلك.

وموضوعه: كلام الله عزّ وجلّ من الحيثية المذكورة.

وفائدته: التوصّل إلى فهم معاني القرآن, والعمل بما فيه بعد الفهم.
وثمرته: التمسّك بالعروة الوثقى, والفوز بالسعادة في الدارين.
وواضعه: الله تعالى ونبيّه عليه الصلاة والسلام, فهو علم إلهيّ نبويّ.
واستمداده: من القرآن نفسِهِ والسُّنَّة وأساليب العرب.
ومسائله: ما يستفاد منه من أحكام وعقائد, وأمثال ومواعظ.
ونسبته: أنه من العلوم الدينيّة, بل رئيسها, لكونها مأخوذة من الكتاب, ومتوقفة في الاعتداد بعد الثبوت عليه.
وفضله: أنه من أشرف العلوم وأجلّها, لأن العلوم إنما تَشرُف بشرف موضوعاتها, وموضوعه أجلّ واشرف.
وأما بيان الحاجة إليه فلأن فهم القرآن المشتمل على ألأحكام الشرعية التي هي مدار السعادة الأبدية, وهي العروة الوثقى, لا يُهتدى إليها إلا بتوفيق من اللطيف الخبير, حتى أن الصحابة رضي الله عنهم على علوّ كعبهم في الفصاحة واستنارة بواطنهم بما أشرق عليهم من مشكاة النبوّة, كانوا كثيرًا ما يرجعون إليه صلّى الله عليه وسلَّم بالسؤال عن أشياء لم يعرجوا عليها, ولم تصل أفهامهم إليها, كما وقع لعدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود, ولا شك أنّا محتاجون إلى ما كانوا محتاجين إليه وزيادة.

حَدّ القرآن:

القرآن: لغةّ: مأخوذٌ من القرء, وهو الجمع, وعرفًا: هو الكلام المنزل على سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلَّم, المعجز بسورة منه.
فقولنا: (الكلام) جنس شامل لجميع الكلام.
وقولنا: (المنزل على سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلَّم) فصلٌ مُخرجٌ للكلام النازل على غيره من الأنبياء, كالتوراة, والإنجيل, وسائر الكتب والصحف.
وقولنا: (المعجز) فصلٌ ثان مُخرجٌ للأحاديث الربانية, كحديث الصحيحين: "أنا عند ظن عبدي", ثم الاقتصار في الحد على الإعجاز, وإن نزل القرآن لغيره أيضًا, لأنه المحتاج إليه في التمييز, فهو الأهم.
وقولنا: (بسورة منه) بيان لأقل ما يحصل به الإعجاز, وهو قدر أقصر سورة, كالكوثر, وإنما كان أقل الإعجاز بأقل سورة, لأنه لم يكن في القرآن آية مفردة, بل الآية تستلزم مناسبة لما قبلها وما بعدها, فتكون ثلاث آيات.
وزاد بعضهم في الحد فقال: المتعبَّد بتلاوته, ليخرج منسوخ التلاوة.
والسورة: هي جملة من القرآن أقلها ثلاث آيات, مسماة باسم خاص لها, بتوقيف من النبي صلّى الله عليه وسلَّم, بأن تذكر بذلك الاسم وتشتهر به.

والآية: هي جملة من السورة مميزة بالفاصلة, وهي الكلمة التي تكون آخر الآية.

المكّيّ والمدنيّ

اختلف العلماء في المكي والمدني على ثلاثة أقوال:

__أشهرها:__ أن **المكّيّ**: ما نزل قبل الهجرة, **والمدنيّ:** ما نزل بعدها, سواء نزل بمكة المكرمة أم بالمدينة المنورة, عام الفتح أو عام حجة الوداع, في الحضر أم في السفر, هذا هو الأصح في تعريفهما.

__الثاني:__ أن **المكي**: ما نزل بمكة المكرَّمة ولو بعد الهجرة, **والمدني**: ما نزل بالمدينة المنورة, فما نزل في الأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني, بل يقال له: سفري.

__الثالث:__ أن **المكي**: ما وقع خطابًا لأهل مكة المكرمة, **والمدني**: ما وقع خطابًا لأهل المدينة المنورة.

علامات للمكّيّ والمدنيّ:

وقد ذكر العلماء للمكي والمدني علامات:

منها: أن كل سورة فيها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وليس فيها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فهي مكية, وفي سورة الحج بعض آيات فيه خلاف.

ومنها: أن كل سورة فيها: {كلا} فهي مكية.

ومنها: أن كل سورة فيها قصة آدم عليه السلام وإبليس فهي مكّيّة, سوى سورة البقرة.

ومنها: أن كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنيّة, سوى سورة العنكبوت

ومنها: أن كل سورة ذكر فيها الحدود والفرائض فهي مدنيّة, وكل سورة ذكر فيها القرون الماضية فهي مكّيّة.

فائدة:

نزلت بالمدينة المنورة تسع وعشرون سورة: البقرة, وآل عمران, والنساء, والمائدة, والأنفال, والتوبة, والرعد, والحج, والنور, والأحزاب, ومحمد, والفتح, والحجرات, والحديد, والمجادلة, والحشر, والممتحنة, والصف, والجمعة, والمنافقون, والتغابن, والطلاق, والتحريم, والقيامة, والزلزلة, والقدر, والنصر, والمعوذتان.

وباقي السور نزل بمكة, وهو خمس وثمانون سورة, إذ سور القرآن كلها مائة وأربع عشرة.

الحضريّ والسفريّ

والحضري: ما نزل بالحضر, **والسفري:** ما نزل في السفر.

وأما السفري فله أمثلة, **منها**: آية التيمم في سورة المائدة, أولها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ} [المائدة: 6] فإنها نزلت بمحل يسمى بذات الجيش, وهي وراء ذي الحليفة, وقيل: بالبيداء, وهي تلي ذي الحليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة.

ومنها: سورة الفتح, نزلت في شأن الحديبية في كراع الغميم (وادٍ بينه وبين المدينة نحوُ مائةٍ وسبعين ميلاً, وبينه وبين مكة نحو ثلاثين ميلاً, ومن عسفان إليه ثلاثة أميال).

وأمثلة الحضري كثيرة لكونه الأصل, فلا يحتاج إلى تمثيل لوضوحه.

الليلي والنهاري والصيفي والشتائي

وينقسم أيضًا باعتبار الزمان إلى **ليلي ونهاري, وصيفي وشتائي.**

وأمثلة النهاري كثيرة لأنه الأصل, وأما الليلي فمن أمثلته آية تحويل القبلة.

ومن أمثلة الصيفي آية الكلالة, وهي قوله تعالى**:** {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ} [النساء: 176] إلى آخرها, وسماها النبي صلّى الله عليه وسلّم بآية الصيف, كما ثبت في صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه.

ومن أمثلة الشتائي قوله تعالى**:** {إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ} إلى قوله تعالى: {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} في سورة النور, ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في يومٍ شاتٍ.

أول ما نزل

اختُلِفَ في أوّل ما نزل من القرآن على أقوال:

أحدها (وهو الصحيح): {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ, خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ, اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ, الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ, عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1-5] وهذا ثابت في الصحيحين وغيرهما.

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم, فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح, ثم حبب إليه الخلاء, وكان يخلو بغار حراء, فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد, قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك, ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها, حتى جاءه الحق في غارِ حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ, قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: (قلت: ما أنا بقارئ, فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد, ثم أرسلني فقال: اقرأ, قلت: ما أنا بقارئ, فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد, ثم أرسلني فقال: اقرأ, قلت: ما أنا بقارئ, فأخذني فغطني الثالثة, ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ, خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ, اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ}) وفي بعض الروايات حتى بلغ {مَا لَمْ يَعْلَمْ}.. الحديث بطوله.

القول الثاني: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: 1] فقد روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله, أي القرآن أنزل قبل؟ قال: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: 1] قلت: أو {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} ؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم, قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: (إني جاورت بحراء, فلما قضيت جواري, نزلت فاستبطنت الوادي, فنظرت أمامي وخلفي, وعن يميني وشمالي, ثم نظرت إلى السماء, فإذا هو (يعني جبريل), فأخذتني رجفةٌ, فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني, فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ, قُمْ فَأَنذِرْ} [المدثر: 1-2]) لكن العلماء أجابوا عن هذا التعارض بأجوبة, أشهرها أن المراد بالأولية في حديث جابر, أولية مخصوصة, وهي أولية الأمر بالإنذار, أي أول ما نزل للرسالة: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} وأول ما نزل للنبوّة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}, وهذا جواب جيد سديد.

وأجاب بعضهم: بأن مراد جابر أن سورة المدثر أول سورة نزلت كاملة, وهذا لا يعارض أن {اقْرَأْ} أول ما نزل مطلقًا, لأنها لم تنزل كلها, بل نزل منها صدرها.

القول الثالث: أن أول ما نزل الفاتحة.

القول الرابع: أن أول ما نزل بسم الله الرحمن الرحيم.

وهناك **أقوال أخرى** في أول ما نزل, وكل ذلك لا يثبت من ناحية السند, وإن صح فيتأول بأن معنى أوّل ما نزل على حذف (من), أي من أوَّلِ ما نزل.

أوائل مخصوصة:

1- أول ما نزل بمكة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1].

2- أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة, وقيل: {ويل للمطففين} [المطففين: 1].

3- أل ما نزل في القتال: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [الحج: 39].

4- أول ما نزل في شأن الخمر: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} [البقرة: 219].

5- أول سورة أنزلت فيها سجدة: النجم, رواه البخاري.

6- أول ما نزل في الأطعمة بمكة: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا} [الأنعام: 145] وبالمدينة: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ} [البقرة: 173].

آخر ما نزل

اختلف العلماء في ذلك على أقوال, أشهرها:

1- أن آخر ما نزل قوله تعالى: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ} [النساء: 176], رواه الشيخان.

2- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية نزلت آية الربا, رواه البخاري, وهي قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا} [البقرة: 278].

3- وقال أيضًا: آخر آية نزلت {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [البقرة: 281].

4- وقال سعيد بن المسيب: آخر آية نزلت آية الدين, قال السيوطي: وهو مرسل صحيح الإسناد.

ويمكن الجمع بين القول الثاني وما بعده, بأنها نزلت كلها دفعة واحدة كترتيبها في المصحف, فيصدق على كل منها أنها آخر ما نزل, وحينئذ يتأول القول الأول بأنه آخر ما نزل في شأن الفرائض والأحكام.

معرفة سبب النزول

السبب: هو الحادثة التي من أجلها نزل القرآن, كسؤال سائل, أو حدوث حادثة.

ثم اعلم أن نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداءً, وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال.

وقد تتبع العلماء القسم الثاني وصنفوا فيه كتبًا مخصوصة, بينوا الآيات التي نزلت بسبب, وبينوا ذلك السبب, واجتهدوا فيه اجتهادًا بالغًا, وأشهر مؤلف في هذا الموضوع "لباب النقول في أسباب النزول" للحافظ السيوطي.

فوائد معرفة سبب النزول: وفي هذا العمل فوائد جليلة:

منها: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

ومنها: أنه طريق قوي في فهم معاني القرآن, لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب.

ما تكرر نزوله

ذكر جماعة من العلماء المتقدمين والمتأخرين أن من القرآن ما تكرر نزوله, ولذلك حِكَمٌ:

منها: التذكير والموعظة.

ومنها: وجود المقتضي.

ومنها: إظهار فضل زائد للمتنزل.

وقد ذكر بعضهم أن من ذلك: آية الروح, والفاتحة, وسورة الإخلاص, ويجوز أن يكون تكرار النزول لفائدة اختلاف حرف القراءة, فتنزل الآية مرّة على حرف, ومرة أخرى على حرف غيره.

ولا يبعد أن تكون الفاتحة نزلت مرّة بحرف {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} ومرّة بحرف {مَلك يَوْمِ الدِّينِ}.

حُفّاظ القرآن ورُواته

حفّاظ القرآن الكريم من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم كثيرون جدًا, لذلك نكتفي بذكر المشهورين من حفّاظه ورواته,

فمنهم: الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي, وعبد الله بن مسعود, ومعاذ بن جبل, وأبي بن كعب, وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة, وزيد بن ثابت, والسيّدة عائشة, والسيّدة حفصة, والسيّدة أم سلمة, وعبادة بن الصامت.

وليس معنى هذا أن هؤلاء فقط هم الحفاظ, بل هناك كثير غيرهم مثلهم, وقد قتل في غزوة بئر معونة سبعون من القراء في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم, ومثلهم في يوم اليمامة.

وحصرُ قرّاء الصحابة الجامعين للقرآن كاملاً أمر يكاد يكون مستحيلاً, خصوصًا مع كثرتهم وتفرقهم في البلاد, وقتلِ من قُتِلَ ممن سبقت الإشارة إليهم.

الصحابة المشتهرون بإقراء القرآن:

أما المشتهرون بإقراء القرآن من الصحابة فسبعة: عثمان بن عفان, وعلي بن أبي طالب, وزيد بن ثابت, وابن مسعود, وأبو الدرداء, وأبو موسى الأشعريّ, وأبي بن كعب, وأخذ عنهم خَلقٌ من التابعين.

أئمة القراءات

ثم تجرد قوم واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية, حتى صاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم, في المدينة, والكوفة, والبصرة, والشام.

واشتهر من هؤلاء في الآفاق الأئمة السبعة:

1- **نافع:** وهو ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم, وقد أخذ عن سبعين من التابعين. منهم أبو جعفر.

2- **ابن كثير**: وهو عبد الله بن كثير بن المطلب القرشي, وأخذ عن عبد الله بن السائب الصحابي.

3- **أبو عمرو:** وهو أبو عمرو البصري المازني, وأخذ عن التابعين.

4- **ابن عامر**: وهو عبد الله بن عامر اليحصبي, وأخذ عن أبي الدرداء وأصحاب عثمان.

5- **عاصم**: وهو ابن بهدلة أبي النجود الأسدي, وأخذ عن التابعين.

6- **حمزة:** وهو حمزة بن حبيب الزيات, وأخذ عن عاصم والأعمش, والسبيعي, ومنصور بن المعتمر وغيرهم.

7- **الكسائي**: وهو علي بن حمزة بن عبد الله الأسديّ, وأخذ عن حمزة, وأبي بكر بن عياش.

ثم انتشر القرّاء في الأقطار, وتفرقوا أممًا بعد أمم, واشتهر من رواة كل طريق من طرق السبعة راويان:

فعن نافع: قالون, وورش عنه.

وعن ابن كثير: قنبل, والبزي عن أصحابه, عنه.

وعن أبي عمرو: الدوري, والسوسي عن اليزيدي عنه.
وعن ابن عامر: هشام, وابن ذكوان عن أصحابه, عنه.
وعن عاصم: أبو بكر بن عياش, وحفص عنه.
وعن حمزة: خلف, وخلاد عن سليم عنه.
وعن الكسائي: الدوري, وأبو الحارث.

جمع القراءات على الروايات:

ثم لما اتسع الخَرْقُ وكاد الباطل يلتبس بالحق, قام جهابذة الأمة وبالغوا في الاجتهاد, وجمعوا الحروف والقراءات, وعزوا الوجوه والروايات, وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ, بأصول أصّلوها, وأركان فصّلوها.

فأول من صنف في القراءات, أبو عبيد القاسم بن سلام, ثم أحمد بن جبير الكوفي, ثم إسماعيل بن إسحاق المالكي صاحب قالون, ثم أبو جعفر بن جرير الطبري, ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجوني, ثم أبو بكر بن مجاهد, ثم قام الناس في عصره وبعده بالتأليف في أنواعها جامعًا ومفردًا, ومُوجزًا ومُسهبًا.

وأئمة القراءات لا تحصى, وقد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبي, ثم حافظ القراءات أبو الخير بن الجزري.

أنواع القراءات بحسب الثبوت

اعلم أن القراءات أنواع:

الأول: المتواتر: وهو ما نقله جَمعٌ لا يمكن تواطؤهم على الكذب, عن مثلهم إلى منتهاه, وغالب القراءات كذلك.

الثاني: المشهور: وهو ما صح سنده, ولم يبلغ درجة التواتر, ووافق القواعد العربية ولو بوجه, ووافق أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً, واشتهر عند القراء, فلم يعدّوه من الغلط ولا من الشذوذ, ويُقرأ به, على ما ذكره ابن الجوزي, ومثاله: ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة, فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض.

وأمثلة ذلك كثيرة, ومن أشهر ما صنف في ذلك "التيسير" للدّاني و"قصيدة الشاطبي", و"أوعية النشر في القراءات العشر", و"تقريب النشر" كلاهما لابن الجزري.

الثالث: الآحاد: وهو ما صح سنده وخالف أحد المصاحف العثمانية أو العربية, أو لم يشتهر الاشتهار المذكور, ولا يقرأ به.

وقد عقد الترمذي في "جامعه" والحاكم في "مستدركه" لذلك بابًا, أخرجا فيه شيئًا كثيرًا صحيح الإسناد, من ذلك: ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدري, عن أبي بكرة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قرأ: "متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان".

وأخرج من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلّى الله عليه وسلّم قرا: "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرات أعين".

وأخرج عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلّى الله عليه وسلَّم قرأ: "لقد جاءكم رسول من أنفَسكم" بفتح الفاء.
وأخرج عن عائشة رضي الله عنها أنه صلّى الله عليه وسلَّم قرأ: "فرُوح وريحان" يعني بضم الراء.
الرابع: الشاذ: وهو ما لم يصح سنده, وفيه كتب مؤلفة, من ذلك قراءة: "مَلَكَ يومَ الدين" بصيغة الماضي ونصب"يوم", و"إياك يعبد" ببنائه للمفعول.
الخامس: الموضوع: كقراءة الخزاعي.
ثم هناك **نوع سادس** يشبه المدرج من أنواع الحديث, وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير, كقراءة سعد بن أبي وقاص "وله أخ أو أخت من أم", أخرجها سعيد بن منصور.
وقراءة ابن عباس "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج", أخرجها البخاري.
وقراءة ابن الزبير "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم".
قال عمرو: فما أدري أكانت قراءته أم فسر؟, أخرجه سعيد بن منصور, وأخرجه الأنباري وجزم بأنه تفسير.
وأخرج عن الحسن أنه كان يقرأ: "وإن منكم إلا واردها والورود الدخول"قال الأنباري: قوله"والورود الدخول" تفسير من الحسن لمعنى الورود, وغلط فيه بعض الرواة, فألحقه بمصحفه, فظن من جاء بعده أنه من الآية, وهو ليس كذلك, بل هو تفسير.

تنبيهات مهمة

التنبيه الأول: المراد من قول النبي صلّى الله عليه وسلَّم: "إن القرآن أنزل على سبعة أحرف (والحرف بمعنى الوجه) أنَّ القرآن أنزل على هذه التوسعة, بحيث لا تتجاوز وجوه الاختلاف في أداء اللفظ الواحد سبعة أوجه.
التنبيه الثاني: قال مكي: من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطًا عظيمًا, قال: ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة وغيرهم, ووافق خط المصحف ألا يكون قرآنًا, وهذا غلط عظيم.
والسبب في الاقتصار على السبعة (مع أن في أئمة القرَّاء من هو مثلهم حفظًا وفضلاً وعلمًا) هو أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرًا جدًا, فلما تقاصرت الهمم, اقتصروا (مما يوافق خط المصحف العثماني) على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به, فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به, والاتفاق على الأخذ عنه, فأفردوا من كل مصرٍ إمامًا واحدًا, ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان

عليه غير هؤلاء من أئمة القراءات ولا القراءة به, كقراءة يعقوب, وأبي جعفر, وشيبة, وغيرهم.

وأصحُّ القراءات سندًا: نافع وعاصم, وأفصحها: أبو عمرو والكسائي.

واعلم أن الخارج عن السبع المشهورة على قسمين:

القسم الأول: ما يخالف رسم المصحف, فهذا لا شك في أنه لا تجوز قراءته, لا في الصلاة ولا في غيرها, **ومنه:** ما لا يخالف رسم المصحف ولم تشتهر القراءة به, وإنما ورد من طرق غريبة لا يعول عليها, وهذا يظهر المنع من القراءة به أيضًا.

القسم الثاني: ما اشتهر عن أئمة هذا الشأن القراءة به قديمًا وحديثًا, فهذا لا وجه للمنع منه, ومن ذلك: قراءة يعقوب وغيره.

التنبيه الثالث: باختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام, ولهذا بنى الفقهاء نقض وضوء الملموس وعدمه على اختلاف القراءة في (لمستم) و(لامستم), وجواز وطء الحائض عند الانقطاع قبل الغسل وعدمه, على الاختلاف في (يَطْهُرنَ) بالتخفيف و(يَطَّهَّرْنَ) بالتشديد.

كيفيات القراءة

للقراءة ثلاث كيفيات:

إحداها: التحقيق: وهو إعطاء كل حرف حقّه, من إشباع المدّ, وتحقيق الهمزة, وإتمام الحركات, واعتماد الإظهار والتشديدات, وبيان الحروف وتفكيكها, وإخراج بعضها من بعض, بالسكت والترتيل والتُؤدَة, وملاحظة الجائز من الوقوف بلا قصر ولا اختلاس ولا إسكان محرك ولا إدغامه, وهو يكون برياضة الألسن وتقويم الألفاظ.

ويستحب الأخذ به على المتعلمين من غير أن يتجاوز فيه إلى حدِّ الإفراط بتوليد الحروف من الحركات, وتكرير القراءات, وتحريك السواكن, وتطنين النونات بالمبالغة في الغُنّات, كما قال حمزة لبعض من سمعه يبالغ في ذلك: أما علمت أن ما فوق البياض برص, وما فوق الجعودة قطط, وما فوق القراءة ليست بقراءة؟

الثانية: الحَدْر: بفتح الحاء وسكون الدال المهملتين, وهو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين, والاختلاس والبدل والإدغام الكبير, وتخفيف الهمزة, ونحو ذلك مما صحت به الرواية, مع مرعاة إقامة الإعراب وتقويم اللفظ, وتمكين الحروف بدون بتر حروف المد, واختلاس أكثر الحركات, وذهاب صوت الغُنَّةِ, والتفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة.

الثالثة: التدوير: وهو التوسط بين المقامين من التحقيق والحدر, وهو الذي ورد عن أكثر الأئمة ممن مد المنفصل, ولم يبلغ فيه الإشباع, وهو مذهب سائر القرّاء, وهو المختار عند أكثر أهل الأداء.

ومن المهمات: تجويد القرآن, وقد أفرده جماعة كثيرون بالتصنيف منهم الداني وغيره, أخرج عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "جوّدوا القرآن"

التجويد

قال القُرَّاء: **التجويد** حلية القراءة, وهو إعطاءُ الحروف حقوقها وترتيبها, وردّ الحرف إلى مخرجه وأصله, وتلطيف النطق به على كمال هيئته, من غير إسراف ولا تعسف, ولا إفراط ولا تكلف, وإلى ذلك أشار صلّى الله عليه وسلَّم بقوله: (من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل, فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) يعني ابن مسعود, وكان رضي الله عنه أعطي حظًا عظيمًا في تجويد القرآن, ولا شك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده, هم متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراء الذين تلقوه بأسانيدهم عن شيوخهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم, وقد عدّ العلماء القراءة بغير تجويد لحنًا.

والقرآن له أحكام تجويدية مشروعة نصّ عليها القراء, كما روى السلف عن الرسول صلّى الله عليه وسلَّم, ومخالفها فاسق, قال ابن الجزري:

والأخذ بالتجويد حتم لازم **من لم يجوّد القرآن آثم**
لأنه به الإله أنزلا **وهكذا منه إلينا وصلا**

آداب تلاوة القرآن

يستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار, وقد كان النبي صلّى الله عليه وسلَّم يكره أن يذكر الله إلا على طُهر, كما ثبت في الحديث, وتسن القراءة في مكان نظيف, وأفضله المسجد, وكره قوم القراءة في الحمام والطريق.

ويستحب أن يجلس مستقبلاً متخشعًا بسكينة ووقار مطرقًا رأسه.

ويُسَنُّ أن يستاك تعظيمًا وتطهيرًا, وقد روي ابن ماجه عن علي رضي الله عنه موقوفًا, والبزار بسند جيد عنه مرفوعًا: (إن أفواهكم طُرقٌ للقرآن, فطيبوها بالسواك).

بقية الآداب:

ويسن الاستماع لقراءة القرآن, وترك اللغط والحديث بحضور القراءة, قال تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: 204].

ويسن السجود عند قراءة آية السجدة.

قال النووي: الأوقات المختارة للقراءة, أفضلها ما كان في الصلاة, ثم الليل, ثم نصفه الأخير, وهي بين المغرب والعشاء محبوبة, وأفضل النهار بعد الصبح.

ويختار لابتدائه ليلة الجمعة, ولختمه ليلة الخميس, فقد روى ابن أبي داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يفعل ذلك, والأفضل الختم أول النهار, أو أول الليل.

ويسن صوم يوم الختم, أخرجه ابن أبي داود عن جماعة من التابعين, وأن يحضر أهله وأصدقاءه, أخرج الطبراني عن أنس رضي الله عنه أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا.

وأخرج عن مجاهد قال: كانوا يجتمعون عند ختم القرآن ويقول: عنده تنزل الرحمة.

ويستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن, وهي قراءة المكيين, أخرج البيهقي في "الشعب", وابن خزيمة من طريق ابن أبي بزة: سمعت عكرمة بن سليمان قال: قرأت على إسماعيل بن عبد الله المكي, فلما بلغت الضحى قال: كَبِّر حتى تختم, فإني قرأت على عبد الله بن كثير فأمرني بذلك وقال: قرأت على مجاهد فأمرني بذلك, وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك, وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أُبَيّ بن كعب فأمره بذلك, كذا أخرجاه موقوفًا.

وبسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم لحديث الترمذي وغيره: (أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل, الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره, كلما حلّ ارتحل).

وأخرج الدارمي بسند حسن عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه: أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قرأ: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس: 1] افتتح من الحمد, ثم قرأ من البقرة إلى: {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: 5] ثم دعا بدعاء الختمة, ثم قام.

ويكره قطع القراءة لمكالمة أحد, قال الحليمي: لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره, وأيّده البيهقي بما في الصحيح: كان ابن عمر إذا قرأ, لم يتكلم حتى يفرغ منه.

ويكره أيضًا الضحك والعبث, والنظر إلى ما يلهي.

ولا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقًا, سواءٌ أحسن العربية أم لا, في الصلاة أم خارجها, ولا تجوز القراءة بالشاذ, نقل ابن عبد البرّ الإجماع على ذلك.

ويكره اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها, وأخرج الآجري من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه مرفوعًا: (من قرأ القرآن فليسأل الله به, فإنه سيأتي قوم يقرؤون القرآن يسألون الناس به).

ويكره أن يقول: نسيت آية كذا بل أُنسيتُها, لحديث الصحيحين في النهي عن ذلك, ونسيانه كبيرة, لحديث أبي داود وغيره: "عُرِضتْ عليّ

ذنوب أمّتي, فلم أرَ ذنبًا أعظم من سورة من القرآن, أو آية, أُوتيَها رجلٌ ثم نسي".

ويسن التعوذ قبل القراءة, قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: 98] أي إذا أردت قراءته.

قال النووي: وصفته المختارة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم, وكان جماعة من السلف يزيدون: السميع العليم.

وعن حميد بن قيس: أعوذ بالله القادر, من الشيطان الغادر.

وعن أبي السمال: أعوذ بالله القوي, من الشيطان الغوي.

وعن قوم: أعوذ بالله العظيم, من الشيطان الرجيم.

وعن آخرين: أعوذ بالله من الشيطان الرحيم, إن الله هو السميع العليم, وفيها ألفاظ آخر, قال الحلواني في "جامعه": ليس للاستعاذة حَدٌ يُنتهى إليه, من شاء زاد ومن شاء نقص.

وليحافظ على قراءة البسملة أول كل سورة, غير براءة, لأن أكثر العلماء على أنها آية, فإذا أخل بها كان تاركًا لبعض الختمة عند الأكثرين, فإذا قرأ من أثناء سورة استحبت له أيضًا, نص عليه الشافعي.

ويسن الترتيل في قراءة القرآن, قال تعالى: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} [المزمل: 4], وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها أنا نعتت قراءة النبي صلّى الله عليه وسلّم: قراءةٌ مفسرةٌ حرفًا حرفًا.

وفي "البخاري" عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: كانت مدًا, ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم, يمد (الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة, فقال: هذًّا كهذّ الشعر, إن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم, ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع.

وأخرج الآجري في "حملة القرآن", عن ابن مسعود صلّى الله عليه وسلّم قال: لا تنثروه نثر الدّقل, ولا تهذّوه هذّ الشعر, قفوا عند عجائبه, وحرّكوا به القلوب, ولا يكون هم أحدكم آخر السورة.

قال في "شرح المهذّب": واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع, قالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمن بلا ترتيلّ, قالوا: واستحباب الترتيل للتدبّر, ولأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير, وأشد تأثيرًا في القلب.

واختلف, هل الأفضل الترتيل وقلة القراءَة, أو السرعة مع كثرتها؟, وأحسن بعض أئمتنا فقال: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدرًا, وثواب الكثرة أكثر عددًا, لأن بكل حرف عشر حسنات.

وفي "البرهان" للزركشي: كمال الترتيل تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه, وألاَّ يُدغَم حرف في حرف.

وقيل: هذا أقلّه, وأكمله أن يقرأ على منازله, فإن قرأ تهديدًا لفظ به لفظ التهديد, أو تعظيمًا لفظ به على التعظيم.

ويسن القراءة بالتدبّر والتفهم, فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم, وبه تنشرح الصدور, وتستنير القلوب, قال تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: 29].

وقال: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [النساء: 82] وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به, فيعرف معنى كلِّ آية, ويتأمل الأوامر والنواهي, ويعتقد قبول ذلك, فإن كان مما قصّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر, وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل, أو عذاب أشفق وتعوّذ, أو تنزيه نزه وعظم, أو دعاء تضرع وطلب.

أخرج مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها, ثم آل عمران فقرأها, ثم النساء فقرأها, يقرأ مترسّلاً, إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح, وإذا مر بسؤال سأل, وإذا مرّ بتعوُّذ تعوَّذ.

ومن التدبّر: أن يجعل نداء القرآن إذا اقتضى ذلك, وهو ما أشار إليه الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي: (من قرأ: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} [التين: 1] فانتهى إلى آخرها فليقل: بلى, وأنا على ذلك من الشاهدين, ومن قرأ: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: 1] فانتهى إلى آخرها: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [القيامة: 40] فليقل: بلى, ومن قرأ: {والمرسلات} فبلغ: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [المرسلات: 50] فليقل: آمنا بالله).

وأخرج أحمد وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قرأ: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} [الأعلى: 1] قال: سبحان ربي الأعلى.

وأخرج الترمذيّ والحاكم عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أصحابه, فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها, فسكتوا, فقال: "لقد قرأتها على الجنّ, فكانوا أحسن مردودًا منكم, كنت كلما أتيت على قوله: {فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نُكَذِّب, فلك الحمد".

وأخرج ابن مردويه والديلمي وابن أبي الدنيا في "الدعاء" وغيرهم بسند ضعيف جدًا عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قرأ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: 186] الآية, فقال: (اللهم أمرت بالدعاء وتكفلت بالإجابة, لبّيك اللهمّ لبّيك, لبّيك لا شريك لك لبّيك, إن الحمد والنعمة لك والملك, لا شريك لك, واشهد أنك فَرد أحدٌ صمدٌ, لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوًا أحدُ,

وأشهد أن وعدك حق, ولقاءك حق, والجنة حق, والنار حق, والساعة آتية لا ريب فيها, وأنك تبعث من في القبور).

وأخرج أبو داود وغيره عن وائل بن حُجر رضي الله عنه سمعت النبي صلّى الله عليه وسلَّم قرأ: {ولا الضالين} فقال: "آمين" يَمُدّ بها صوته, وهو معنى إجابة القرآن.

وأخرجه الطبراني بلفظ قال: "آمين" ثلاث مرات, وأخرجه البيهقي بلفظ: قال: "رب اغفر لي آمين".

قال النووي: ومن الآداب إذا قرأ نحو: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ} [التوبة: 30], {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: 64] أن يخفض بها صوته, كذا كان النخعي يفعل.

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن, والتباكي لمن لا يقدر عليه, والحزن والخشوع, قال تعالى: {وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ} [الإسراء: 109].

وفي الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود رضي الله عنه على النبيّ صلّى الله عليه وسلَّم, وفيه: فإذا عيناه تذرفان.

وفي "الشعب" للبيهقي عن سعد بن مالك مرفوعًا: (إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة, فإذا قرأتموه فابكوا, فإن لم تبكوا, فتباكَوا) وفيه من مرسل عبد الملك بن عمير أن رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم قال: (إني قارئٌ عليكم سورة, فمن بكى فله الجنة, فإن لم تبكوا فتباكَوا).

وفي مسند "أبي يعلى" حديث: "اقرؤوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن"

وعن الطبراني: "أحسن الناس قراءة من إذا قرأ القرآن يتحزّن به".

قال في "شرح المهذب": وطريقه في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود, ثم يفكّر في تقصيره فيها, فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فليبكِ على فقد ذلك, فإنه من المصائب.

ويسنُّ تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها, لحديث ابن حبان وغيره: (زيّنوا القرآن بأصواتكم", وفي لفظ عند الدارمي: (حسّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسنًا).

وأخرج البزار وغيره حديث: (حُسنُ الصوت زينة القرآن) وفيه أحاديث صحيحة كثيرة, فإن لم يكن حَسَنَ الصوت, حَسَّنَهُ ما استطاع, بحيث لا يخرج إلى حدّ التمطيط والغناء, لما جاء في الحديث: (اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها, وإياكم ولحون أهل الكتابين, وأهل الفسق, فإنه سيجيء أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانيّة, لا يجاوز حناجرهم, مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم) أخرجه الطبراني والبيهقي.

قال النووي: ويستحب طلب القراءة من حَسَنِ الصوت والإصغاء إليها, للحديث الصحيح, لا بأس باجتماع الجماعة في القراءة ولا بإدارتها, وهي أن يقرأ بعض الجماعة قطعة, ثم البعض قطعة بعدها.

ويستحب قراءته بالتفخيم لحديث الحاكم: (نزل القرآن بالتفخيم) قال الحليمي: ومعناه أنه يقرؤه على قراءة الرجال ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء, قال: ولا يدخل في هذا كراهة الإمالة التي هي اختيار بعض القراء, وقد يجوز أن يكون القرآن نزل بالتفخيم, فرُخِّص مع ذلك في إمالة ما يحسن إمالته.

قاعدة في معرفة غريبه

الغريب: هو معنى الألفاظ التي يحتاج إلى البحث عنها في اللغة, ومرجعه النقل والكتب المصنفة فيه, وينبغي الاعتناء به. فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه) وأخرج من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: (من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة, ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات), والمراد بإعرابه: معرفة معاني ألفاظه, وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النُحاة, وهو ما يقابل اللحن, لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها, وعلى الخائض في ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن, فهؤلاء الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها, فلم يقولوا فيها شيئًا.

وأخرج أبو عبيد في "الفضائل" عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: 31] فقال: أيُّ سماء تظلني, وأيُّ أرض تقلني, إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها, فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو الكَلَفُ يا عمر.

وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما, قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات, حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر, فقال أحدهما: أنا فطرتها, يقول: أنا ابتدأتها.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: {وحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا} [مريم: 13] فقال: سألت عنها ابن عباس رضي الله عنهما فلم يجب فيها شيئًا.

وأخرج الفريابي: حدثنا إسرائيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعًا: غسلين, وحنانًا, وأواه, والرقيم.

فوائد معرفة الغريب:

معرفة هذا الفن للمفسر ضرورية, قال في "البرهان": يحتاج الكاشف عن ذلك إلى معرفة علم اللغة, أسماء وأفعالاً, وحروفًا, فالحروف لقلتها تكلم النحاة على معانيها, فيؤخذ ذلك من كتبهم, وأما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب علم اللغة.

قال السيوطي: وأولى ما يرجع إليه في ذلك, ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه, الآخذين عنه, فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الصحيحة, مما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة, وهي من أصح الطُرق عنه.

وساق السيوطي في "الإتقان" جميع ما ورد من ذلك على وجه الإتقان والاستيعاب مرتبًا على السور.

كيف يقع الغريب في القرآن؟

استُشكِلَ دخول الغريب في القرآن مع أن السلامة من الغرابة من شروط الفصاحة, والقرآن أفصح الكلام, فيجب أن يكون خاليًا من ذلك.

أجيب: بأن الغرابة لها معنيان:

المعنى الأول: استعمال اللفظ الوحشي غير المأنوس الاستعمال, وهذا مما يخل بالفصاحة.

والمعنى الثاني: استعمال ما لا مدخل للرأي فيه, بل يرجع معناه إلى النقل, مثل: قسورة للأسد, وهذا النوع واقع في القرآن, وهو محتاج إلى البيان من أهل هذا الشأن.

قال أبو بكر بن الأنباري: قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيرًا الاحتجاجُ على غريب القرآن ومُشْكله بالشعر, قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشعر ديوان العرب, فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها, فالتمسنا معرفة ذلك منه, ثم أخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر, فإن الشعر ديوان العرب.

ما وقع فيه بغير لغة العرب

اختلف الأئمة في وقوع المعرب في القرآن, فالأكثرون ومنهم: الإمام الشافعي, وابن جرير, وأبو عبيدة, والقاضي أبو بكر, وابن فارس, على عدم وقوعه فيه, لقوله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [فصلت: 3] وقوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [فصلت: 44] وقد شدد الشافعي النكير على القائل بوقوع شيء من غير لغة العرب في القرآن.

وقال أبو عبيدة: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين, فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول.

ويقابل هذا القول, ما جاء عن بعضهم بجواز وقوع ذلك, وأن هناك ألفاظًا غير عربية استعملها العرب وجرت مجرى الفصيح, فوقع بها البيان ونزل القرآن.

وقال آخرون: كل هذه الألفاظ عربية صرفة, ولكن لغة العرب متسعة جدًا, ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الجلة, وقد خفي على ابن عباس رضي الله عنهما معنى (فاطر) و(فاتح).

قال الشافعي في "الرسالة": لا يحيط باللغة إلا نبيّ.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: والصواب عندي, أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء, لكنها وقعت للعرب, فعرّبتها بألسنتها, وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية, ثم نزل القرآن, وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب, فمن قال: إنها عربية فهو صادق, ومن قال: أعجمية فصادق, ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون.

<u>وهذه أمثلة لتلك الألفاظ:</u>

(أباريق): حكى الثعالبي في "فقه اللغة" أنها فارسية, وقال الجواليقي: الإبريق فارسي معرب, ومعناه طريق الماء أو صب الماء على هينة.

(أبّ): قال بعضهم: هو الحشيش بلغة أهل الغرب, حكاه شيذلة.

(ابلعي): أخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه في قوله تعالى: {ابْلَعِي مَاءكِ} [هود: 44] قال: بالحبشية "إزدرديه".

(أخلد): قال السيوطي في "الإرشاد": أخلد إلى الأرض, ركن بالعبرية.

(الأرائك): حكى ابن الجوزي في "فنون الأفنان", أنها السُرُر بالحبشية.

(إستبرق): أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه الديباج الغليظ بلغة العجم.

(أسفار): قال الواسطي في "الإرشاد" هي الكتب بالسريانية.

(إصري): قال أبو القاسم في "لغات القرآن": معناه عهدي بالنَّبَطية.

(أكواب): حكى ابن الجوزي أنها الأكواز بالنبطية.

(الإناه): نضجه بلسان أهل المغرب.

(أواه): أخرج أبو الشيخ ابن حبان من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الأواه الموقن بلسان الحبشة.

قاعدة تتعلق بالتعريف والتنكير

إذا ذكر الاسم مرتين فله أربعة أحوال, لأنه إما أن يكونا معرفتين, أو نكرتين, أو الأول نكرة والثاني معرفة, أو بالعكس, فإن كانا معرفتين فالثاني هو الأول غالبًا, دلالة على المعهود الذي هو الأصل في اللام, أو الإضافة نحو: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ, صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [الفاتحة: 6-7], {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ} [غافر: 9].

وإن كانا نكرتين فالثاني غير الأول غالبًا, وإلا لكان المناسب هو التعريف بناءً على كونه معهودًا سابقًا, نحو: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم: 54] فإن المراد بالضعف الأول النطفة, وبالثاني الطفولية, والثالث الشيخوخة.

وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا, إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الانشراح: 5-6] فالعسر الثاني هو الأول, واليسر الثاني غير الأول, ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم في الآية: (لن يغلب عسر يسرين).

وإن كان الأول نكرة والثاني معرفة, فالثاني هو الأول حملاً على العهد, نحو: {أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً , فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} [المزمل: 15-16], {فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ} [النور: 35], {إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ , صِرَاطِ اللَّهِ} [الشورى: 52-53], {مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ, إِنَّمَا السَّبِيلُ} [الشورى: 42].

وإن كان الأول معرفة والثاني نكرة, فلا يطلق القول بل يتوقف على القرائن, فتارة تقوم قرينة على التغاير, نحو: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} [الروم: 55], وتارة تقوم قرينة على الاتحاد, نحو: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ, قُرآنًا عَرَبِيًّا} [الزمر: 27-28].

قاعدة أخرى في التعريف والتنكير

اعلم أن لكل منهما مقامًا لا يليق بالآخر, أما التنكير فله أسباب:

أحدها: إرادة الوحدة: نحو: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ} [الزمر: 29].

الثاني: إرادة النوع: نحو: {هَذَا ذِكْرٌ} [ص: 49] أي نوع من الذكر {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة: 7] أي نوع غريب من الغشاوة لا يتعارفه الناس, بحيث غطى ما لا يغطيه شيء من الغشاوات {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [البقرة: 96] أي نوع منها, وهو الازدياد في المستقبل, لأن الحرص لا يكون على الماضي ولا على الحاضر.

ويحتمل الوحدة والنوعية معًا: قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء} [النور: 46] أي كل نوع من أنواع الدواب, من نوع من أنواع الماء, وكل فرد من أفراد الدواب, من فرد من أفراد النطف.

الثالث: التعظيم: بمعنى أنه أعظم من أن يعين أو يعرف نحو: {فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ} [البقرة: 279] أي بحرب أيّ حرب.

الرابع: التكثير: نحو: {أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا} [الشعراء: 41] أي وافرًا جزيلاً.

ويحتمل التعظيم والتكثير معًا: قوله: {وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ} [فاطر: 4] أي رسل عظام ذوو عدد كثير.

الخامس: التحقير: بمعنى انحطاط شأنه إلى حد لا يمكن أن يعرف, نحو: {إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا} [الجاثية: 42] أي ظنًا حقيرًا لا يعبأ به.

السادس: التقليل: نحو: {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ} [التوبة: 72] أي رضوان قليل منه أكبر من الجنات, لأنه رأس كل سعادة:

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

وأما التعريف فله أسباب:

فبالإضمار: لأن المقام مقام التكلم أو الخطاب أو الغيبة.

وبالعلمية: لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداءً باسم مختص به, نحو: {قُلْ هُوَ اللَّهُ} [الصمد: 1], {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ} [الفتح: 29].

أو لتعظيم أو إهانة: فمن التعظيم ذكر يعقوب بلقبه إسرائيل, لما فيه من المدح والتعظيم بكونه صفوة الله, أو سريّ الله, ومن الإهانة قوله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد: 1].

وبالإشارة: لتمييزه أكمل تمييز بإحضاره في ذهن السامع حسًا, نحو: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ} [لقمان: 11] وللتعريض بغباوة السامع حتى إنه لا يتميز له الشيء إلا بإشارة الحس, وهذه الآية تصلح لذلك.

ولقصد تحقيره بالقرب: كقول الكفار: {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} [الأنبياء: 36], {أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً} [الفرقان: 41], {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً} [البقرة: 26] وقوله تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ} [العنكبوت: 64].

ولقصد تعظيمه بالبعد: نحو: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [البقرة: 2], ذهابًا إلى بعد درجته.

قاعدة في الإفراد والجمع

الإفراد: هو أن ترد بعض الكلمات القرآنية بصيغة الإفراد في غالب المواضع, وبصيغة الجمع في مواضع أخرى.

والجمع: هو أن ترد بعض الكلمات القرآنية بصيغة الجمع في غالب المواضع, وبصيغة الإفراد في بعضها.

من ذلك: السماء والأرض, فحيث وقع في القرآن ذكر الأرض فإنها مفردة ولم تجمع, ولذلك فإنه لم يرد لفظ (أرضون) لثقل جمعها,

بخلاف السموات, ولهذا لما أريد ذكر جميع الأرضين قال: {وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: 12] وأما السماء فذكرت تارة بصيغة الجمع, وتارة بصيغة الإفراد, لنكت تليق بذلك المحل.

والحاصل: أنه حيث أريد العدد أتي بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة, نحو {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} [الحديد: 1] أي جميع سكانها على كثرتهم, {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ} [الإسراء: 44] أي كل واحدة على اختلاف عددها.

وحيث أريد الجهة أتي بصيغة الإفراد, نحو {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ} [الذاريات: 22], {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ} [الملك: 16] أي من فوقكم.

ومن ذلك: الريح, ذكرت مجموعة ومفردة, فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت, أو في سياق العذاب أفرِدَت.

وهذه القواعد هي على وجه الغالب, وقد تخرج عنها نصوص أجاب العلماء عنها في المطولات.

الوجوه والنظائر

الوجوه: جمع وجه, وهو اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان, كلفظ الأمة, **والنظائر:** كالألفاظ المتواطئة.

وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن, حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهًا وأكثر وأقل, ولا يوجد ذلك في كلام البشر.

وهذه عيون من أمثلة هذا النوع, من ذلك:

- ***الهدى:*** "الهدى" وهو يأتي على سبعة عشر وجهًا: منها:

الثبات: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [الفاتحة: 6].

والبيان: {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ} [البقرة: 5].

والدين: {إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ} [آل عمران: 73].

والإيمان: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} [مريم: 76].

والتوحيد: {إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ} [القصص: 57].

والسنَّة: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90], {وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ} [الزخرف: 22].

والإلهام: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: 50], أي ألهمه المعاش.

والتوبة: {إنا هُدْنَا إِلَيْكَ} [الأعراف: 156].

- ***الصلاة:*** ومن ذلك "الصلاة" وهي تأتي على أوجه:

الصلوات الخمس: {يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ} [المائدة: 55].

وصلاة العصر: {تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ} [المائدة: 106].

وصلاة الجمعة: {إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ} [الجمعة: 9].

والجنازة: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم} [التوبة: 84].

والدعاء: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [التوبة: 103].
والدين: {أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ} [هود: 87].
والقراءة: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ} [الإسراء: 107].
والرحمة والاستغفار: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} [الأحزاب: 56].

- ***الفتنة:*** ومن ذلك "الفتنة" وردت على أوجه:

الشرك: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: 191].
والإضلال: {ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ} [آل عمران: 7].
والقتل: {أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [النساء: 101].
والمعذرة: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [الأنعام: 23].
والقضاء: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ} [الأعراف: 155].
والمرض: {يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ} [التوبة: 126].
والعبرة: {لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} [يونس: 85].

- ***الروح:*** ومن ذلك "الروح" ورد على أوجه:

الأمر: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [النساء: 171].
والوحي: {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ} [النحل: 2].
والقرآن: {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا} [الشورى: 52].
وجبريل: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} [مريم: 17].
وروح البدن: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [الإسراء: 85].

- ***الذكر:*** ومن ذلك "الذكر" ورد على أوجه:

ذكر اللسان: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ} [البقرة: 200].
والحفظ: {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ} [البقرة: 63].
والطاعة والجزاء: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: 152].
والحديث: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ} [يوسف: 42], أي حدّثه بحالي.
والقرآن: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} [طه: 124].
والشرف: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ} [الزخرف: 44].
والعيب: {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} [الأنبياء: 36].
واللوح المحفوظ: {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ} [الأنبياء: 105].
والثناء: {وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].
والصلاة: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: 45].

معرفة إعرابه

أخرج أبو عبيد في "فضائله" عن عمر بن الخطاب قال: "تعلموا اللحن والفرائض والسنن كما تعلمون القرآن".

فعلى الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها, ككونها مبتدًا أو خبرًا أو فاعلاً أو مفعولاً, أو في مبادئ الكلام أو في جواب, إلى غير ذلك.

ويجب عليه مراعاة أمور:

الأول: وهو أول واجب عليه, أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفردًا أم مركبًا قبل الإعراب, فإنه فرع المعنى, ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور إذا قلنا بأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

الثاني: أن يتجنب الأمور البعيدة, والأوجه الضعيفة واللغات الشاذة, ويخرج على القريب والقوي والفصيح, فإن لم يظهر فيه إلا الوجه البعيد فله عذر, وإن ذكر الجميع لقصد الإغراب والتكثير فصعب شديد, أو لبيان المحتمل وتدريب الطالب فحسن في غير ألفاظ القرآن.

أما التنزيل فلا يجوز أن يخرج إلا على ما يغلب على الظن إرادته, فإن لم يغلب شيء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف, ومن ثم خطِّئ من قال في: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ} [البقرة: 158] إن الوقف على {جُنَاحَ} و{عَلَيْهِ} إغراء, لأن إغراء الغائب ضعيف.

الثالث: أن يستوفي جميع ما يحتمله اللفظ من الأوجه الظاهرة, فتقول في نحو: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1] يجوز كون {الأَعْلَى} صفة للرب, أو صفة للاسم.

وفي نحو: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ, الَّذِينَ} [البقرة: 2-3] يجوز كون: {الَّذِينَ} تابعًا ومقطوعًا إلى النصب بإضمار (أعني) أو (أمدح), وإلى الرفع بإضمار (هم).

الرابع: أن يراعي الرسم, ومن ثم خطِّئ من قال في {سلسبيلا} إنها جملة أمرية, أي سَلْ طريقًا موصلة إليها لأنها لو كانت لكتبت مفصولة.

الخامس: أن يجتنب إطلاق لفظ الزائد في كتاب الله تعالى, فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له, وكتاب الله منزه عن ذلك, ولذا فر بعضهم إلى التعبير بَدَلَهُ بالتأكيد, والصلة, والمقحم.

حفظ القرآن من اللحن

القرآن كلام الله جاء محفوظًا من كل نقص معنوي أو لفظي {قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} [الزمر: 25].

وقد كتب علماء التفسير عمّا يسمّى **لحن القرآن** ومعناه: مخالفة الآية للقواعد العربية المقررة.

ومن ذلك قول بعضهم في قوله تعالى: {لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 162] إنه لحن, إذ أن قواعد اللغة العربية تقتضي أن يقول (والمقيمون) لأنه معطوف على ما قبله, وهو {وَالْمُؤْمِنُونَ} والمعطوف على المرفوع مرفوع.

وقالوا: إن هذا الخطأ من الكتّاب, ويستدلون على هذا بأثر ورد في هذا الباب.

والحق هو أن هذا الأثر مهما كانت درجته, فهو في مصادمة النصوص المقطوع بها التي تدل على حفظ الله للقرآن نقلاً وكتابةً وجمعًا.

أقول: فهذا الخبر ساقط المعنى, ولا عبرة به, ولا حجة فيه, وكيف يظن بالصحابة أولاً أنهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن, وهم الفصحاء؟ ثم كيف يظن بهم ثانيًا في القرآن الذي تلقوه من النبي صلّى الله عليه وسلّم كما أنزل, وحفظوه وضبطوه وأتقنوه؟

ثم كيف يظن ثالثًا اجتماعهم على الخطأ وكتابته؟

ثم كيف يظن رابعًا عدم تنبههم ورجوعهم عنه؟

ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهى عن تغييره؟

ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ, وهو مروي بالتواتر خلفًا عن سلف؟

هذا مما يستحيل عقلاً بالتواتر خلفًا عن سلف؟

وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة كثيرة تُطْلَبُ في المراجع,

فمنها: أن قوله: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ} منصوب على المدح المقطوع, بتقدير "أمدح" لأنه أبلغ, ويصح أن يكون معطوفًا على المجرور في {يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ} أي ويؤمنون المقيمين الصلاة, وهم الأنبياء, **وقيل:** الملائكة, وقيل التقدير: (يؤمنون بدين المقيمن) فيكون المراد بهم المسلمين, **وقيل:** بإجابة المقيمين, ويصح أن يكون معطوفًا على "قبل" أي ومن قبل المقيمين, فحذفت "قبل" وأقيم المضاف إليه مقامه.

ومن أمثلة ما قيل فيه: إنه لحنٌ, قوله تعالى: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} [طه: 63] فمقتضى قواعد اللغة العربية أن يقول (إن هذين لساحران) لأنه اسم "إن " وهو منصوب بالياء نيابة عن الفتحة, وقد أجاب عنه العلماء بأجوبة كثيرة:

منها: أنه جارٍ على لغة من يُجري المثنى بالألف في أحواله الثلاث, وهي لغة مشهورة لكنانة, وقيل: لبني الحارث.

ومنها: أن اسم "إن " ضمير الشأن محذوفًا, والجملة مبتدأ وخبر, خبر "إن"

ومنها: كذلك, إلا أن "ساحران " خبر مبتدأ محذوف, والتقدير: "لهما ساحران".

ومنها: أن "إن" هنا بمعنى نعم.

ومنها: أن "ها" ضمير القصة اسم "إن" و"ذان لساحران" مبتدأ وخبر.

ومما قيل فيه: إنه من اللحن, قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئونَ} [المائدة: 69] فقالوا: إن قواعد اللغة العربية تقتضي أن يقول (والصابئين) لأنه معطوف على اسم "إن" وزعموا أن هذا لحنٌ, وكلامهم ساقط وباطل.

وقد أجاب العلماء عن هذا اللفظ بأوجه:
منها: أنه مبتدأ حذف خبره, أي والصابئون كذلك.
ومنها: أنه معطوف على محل "إن" مع اسمها, فإن محلها رفع بالابتداء.
ومنها: أنه معطوف على الفاعل في {هادوا}.

المحكم والمتشابه

قال تعالى: {هُوَالَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: 7].
وفي المسِألة أقوال: أشهرها وأصحها القول بانقسام القرآن إلى: محكم ومتشابه, للآية المصدر بها.
وقد اختلف في تعيين المحكم والمتشابه على أقوال: أشهرها وأقربها وأصحها قول ابن عباس رضي الله عنهما: **المحكمات:** ناسخه, وحلاله, وحرامه, وحدوده, وما يؤمن به ويعمل به, **والمتشابهات:** منسوخه, ومقدمه ومؤخره, وأمثاله, وأقسامه, وما يؤمن به ولا يعمل به.
وقيل: **المحكم** ما كان معقول المعنى, **والمتشابه** بخلافه.
ويدخل في هذا آيات الصفات, كالاستواء والمجيء والوجه واليد إلى آخرها.
ويدخل فيه أيضًا الحروف المقطعة في أوائل السور, مثل: الم, والمص, والمر, وكهيعص, طسم, وطس, ويس, وحم, وحم عسق.

حكم المتشابه:

اختلف, هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه, أو لا يعلمه إلا الله؟ على القولين, منشؤهما الاختلاف في قوله: {والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} هل هو معطوف و{يقولون} حال, أو مبتدأ خبره {يقولون} والواو استئناف؟
وعلى الأول طائفة يسيرة, منهم مجاهد, وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما, فأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران: 7] قال: أنا ممن يعلم تأويله.
وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خصوصًا أهل السنة, فذهبوا إلى الثاني, وهو أصح الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الحافظ السيوطي: ويدل لصحة مذهب الأكثرين ما أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" والحاكم في "مستدركه" عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ ويقول الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ آمنا به), فهذا يدل على أن الواو للاستئناف, لأن هذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة, فأقل درجاتها أن يكون خبرًا بإسناد صحيح إلى ترجمان

القرآن, فيقدم كلامه في ذلك على من دونه, ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه, ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة وعلى مدح الذي فوضوا العلم إلى الله, وسلموا إليه كما مدح لله المؤمنون بالغيب, وحكى الفراء أن في قراءة أبي بن كعب أيضًا: {ويقول الرَّاسِخُونَ}.

وأخرج ابن أبي داود في "المصاحف" من طريق الأعمش قال في قراءة ابن مسعود: {وإن تَأْوِيلَهُ إِلاَّ عند اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذه الآية: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [آل عمران: 7] إلى قوله: {أولو الألباب} قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله, فاحذرهم).

وأخرج الطبراني في "الكبير" عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: (لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدون فيقتتلوا, وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله, وليس يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا, وما يذكر إلا أولوا الألباب, وأن يروا ذا علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه).

فهذه الأحاديث والآثار تدل على أن المتشابه مما لا يعلمه إلا الله, وأن الخوض فيه مذموم.

الحكمة في ورود المتشابه في القرآن:

وقد أشار بعضهم إلى حكمة وجود المتشابه في القرآن مع العجز عن معرفته فقال: العقل مبتلى باعتقاد حقيّة المتشابه كابتلاء البدن بأداة العبادة, كالحكيم إذا صنف كتابًا أجمل فيه أحيانًا ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه, وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره.

وقيل: لو لم يُبتَل العقل الذي هو أشرف البدن لا ستمر العالم في أبهة العلم على التمرد, فبذلك يستأنس إلى التذلل بعز العبودية, والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها استسلامًا واعترافًا بقصورها, وفي ختم الآية بقوله تعالى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ} [آل عمران: 7] تعريض بالزائغين, ومدح للراسخين, يعني من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه فليس من أولي العقول, ومن ثم قال الراسخون: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا} [آل عمران: 8] إلى آخر الآية, فخضعوا لبارئهم لاستنزال العلم اللّدني, بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفساني.

وإذا علمت أن الخوض في المتشابه مذموم فلا بد من تحديد المتشابه, وهذا هو الأولى ليعلم المذموم فيجتنب, ولذلك قال الخطابي: المتشابه على ضربين:

أحدهما: ما إذا رد إلى المحكم واعتبر به, عُرِفَ معناه.

والآخر: ما لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته, وهو الذي يتبعه أهل الزيغ, فيطلبون تأويله ولا يبلغون كنهه, فيرتابون فيه, فيفتتنون.

آيات الصفات:

من المتشابه آيات الصفات نحو قوله تعالى: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48], {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5], {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ} [القصص: 88], {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: 27], {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39], {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: 10], {وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: 67] ولابن اللبان فيها تصنيف مفرد.

وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها, وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ولا نفسرها, مع تنزيهنا له عن حقيقتها المتبادرة إلى الذهن المعروفة من ظاهر اللفظ.

وذهبت طائفة من أهل السنُّة إلى تأويلها بما يليق بجلاله تعالى. وكان إمام الحرمين يذهب إليه, ثم رجع عنه, فقال في "الرسالة النظامية": الذي نرتضيه دينًا, وندين الله به عقدًا, إتباع سلف الأمة, فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها.

قال ابن الصلاح: على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها, وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها, وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه, ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها.

وتوسط ابن دقيق العيد فقال: إذا كان التأويل قريبًا من لسان العرب لم ينكر, أو بعيدًا توقفنا عنه, وآمنا بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التنزيه, قال: وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهرًا مفهومًا من تخاطب العرب, قلنا به من غير توقيف, كما في قوله تعالى: {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} [الزمر: 56] فنحمله على حق الله وما يجب له.

ومن المتشابه أوائل السور, والمختار فيها أيضًا أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى, أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور, فقال: إن لكل كتاب سرًا, وإن سر هذا القرآن فواتح السور.

وخاض في معناها آخرون, فأخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق أبي الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: {الم} قال: أنا الله أعلم, وفي قوله: {المص} قال: أنا لله أفصل, وفي قوله: {الر} أنا الذي أرى.

قاعدة في مقدمه ومؤخره

وهو ما أشكل معناه في الظاهر, فلما عرف أنه من باب التقديم والتأخير اتضح, وهو جدير أن يفرد بالتصنيف, وقد تعرض السلف لذلك في آيات.

فأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [التوبة: 55] قال: هذا من تقاديم الكلام, يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا, إنما يريد الله ليعذبهم بها, أي في الآخرة.

وأخرج عنه أيضًا في قوله تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى} [طه: 129].

قال: هذا من تقاديم الكلام: يقول: لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزامًا.

وأخرج عن قتادة في قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: 54] قال: هذا من المقدم والمؤخر, أي رافعك إلي ومتوفيك.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله تعالى: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: 83] قال: هذه الآية مقدمة ومؤخرة, إنما هي: أذاعوا به إلا قليلاً منهم, ولولا فضل الله عليكم, ورحمته لم ينج قليل ولا كثير.

العام والخاص

العام: لفظ يستغرق الصالح له من غير حصره, <u>وصيغته:</u>

<u>كل:</u> مبتدأة نحو: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن: 26], أو تابعة نحو: {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} [الحجر: 30].

<u>والذي والتي:</u> وتثنيتهما وجمعهما, نحو: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا} [الأحقاف: 17] فإن المراد به كل من صدر منه هذا القول, بدليل قوله بعد: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} [الأحقاف: 18], {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ} [البقرة: 82], {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26], {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ} [آل عمران: 15], {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ} [الطلاق: 4], {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ} [النساء: 15], {وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا} [النساء: 16].

<u>وأي, وما, ومن:</u> شرطًا واستفهامًا وموصولاً, نحو: {أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [الإسراء: 110], {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: 98], {مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: 123].

والجمع المضاف: نحو: {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ} [النساء: 11] والمعرف بأل نحو: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [المؤمنون: 1], {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ} [التوبة: 36].

واسم الجنس المضاف: نحو: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} [النور: 63] أي كل أمر الله.

والمعرف بأل: نحو: {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ} [البقرة: 275] أي كل بيع {إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: 2] أي كل إنسان, بدليل {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا} [العصر: 3].

والنكرة في سياق النفي والنهي: نحو: {فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ} [الإسراء: 23], {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ} [الحجر: 21], {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [البقرة: 2], {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: 197] وفي سياق الشرط نحو: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ} [التوبة: 6] وفي سياق الامتنان نحو: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا} [الفرقان: 48].

أنواع العام:

العام على ثلاثة أقسام:

الأول: الباقي على عمومه: وأمثلته في القرآن كثيرة وآياته كلها في غير الأحكام الفرعية, لأن الأحكام الفرعية يصح غالبًا دخول التخصيص عليها, كما قالوا: (ما من عام إلا ويمكن أن يدخله التخصيص).

ومن العام الباقي على عمومه قوله: {وَأَنَّ اللّهَ بكل شيء عليم} [المائدة: 97] قوله: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} [يونس: 44] قوله: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: 49] قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} [فاطر: 11] قوله: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا} [غافر: 64].

الثاني: العام المراد به الخصوص: وهو اللفظ العام الوارد الذي لا يشمل جميع أفراده, لا من جهة تناول اللفظ, ولا من جهة الحكم, بل هو ذو أفراد استعمل في فرد منها, ومن أمثلته قوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} [آل عمران: 39].فالملائكة هنا المراد بهم: جبريل, إذ هو الذي نادى.

الثالث: العام المخصوص: ومن أمثلته ما خص بالقرآن نفسه كقوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ} [البقرة: 228] خص بقوله: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ} [الأحزاب: 49] وبقوله: {وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [الطلاق: 5].

ومن أمثلته أيضًا (العام المخصوص) قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ} [المائدة: 3] خص من الميتة السمك, بقوله: {أُحِلَّ

لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ} [المائدة: 96] ومن الدم الجامد بقوله: {أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا} [الأنعام: 145] ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا} [النساء: 20] خص بقوله تعالى: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} [البقرة: 229], وقوله: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ} [النور: 2] خص بقوله: {فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ} [النساء: 25] وقوله: {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء} [النساء: 3] خص بقوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} [النور: 23].

قاعدة في مجمله ومبيَّنه

المجمل: ما لم تتضح دلالته, وهو واقع في القرآن خلافًا لداود الظهري, وفي جواز بقائه مجملاً أقوال, أصلحها: لا يبقى التكليف بالعمل به, بخلاف غيره.

واختلف في آيات, هل هي من قبيل المجمل أو لا؟

منها: آية السرقة, قيل إنها مجملة في اليد, لأنها تطلق على العضو إلى الكوع, وإلى المرفق, وإلى المنكب, وفي القطع لأنه يطلق على الإبانة, وعلى الجرح, ولا ظهور لواحد من ذلك, وإبانة الشارع من الكوع تبين أن المراد ذلك, وقيل: لا إجمال فيها, لأن القطع ظاهر في الإبانة.

ومنها: {وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ} [المائدة: 6] قيل: إنها مجملة لترددها بين مسح الكل والبعض, ومسح الشارع الناصية مبين لذلك, وقيل: لا, وإنما هي لمطلق المسح الصادق بأقل ما يطلق عليه الاسم ويفيده.

ومنها: الآيات التي فيها الأسماء الشرعية, نحو: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [البقرة: 43], {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة: 185], {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} [آل عمران: 97], قيل: إنها مجملة, لاحتمال الصلاة لكل دعاء, والصوم لكل إمساك, والحج لكل قصد, والمراد بها لا تدل عليه اللغة, فافتقر إلى البيان, وقيل: لا, بل يحمل على كل ما ذكر, إلا ما خص بدليل.

قاعدة في ناسخه ومنسوخه

النسخ: هو الخطاب الدال على رفع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم.

وهو من خصائص الأمة المحمدية, كما قال تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: 106], وقد أجمع المسلمون على جوازه.

معاني النسخ:

يرد النسخ بمعنى: **الإزالة**, ومنه قوله: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ} [الحج: 52].

وبمعنى **التبديل,** ومنه: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ} [النحل: 101].

وبمعنى **التحويل** كتناسخ المواريث, بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد.

وبمعنى **النقل من موضع إلى موضع,** ومنه: نسخت الكتاب, إذا نقلت ما فيه حاكيًا للفظه وخطّه.

واختلف العلماء في الناسخ, فقيل: لا يُنسخُ القرآن إلا بالقرآن لقوله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: 106], قالوا: ولا يكون مثل القرآن وخيرًا منه إلا قرآن, وقيل: بل ينسخ الله القرآن بالسنة, لأنها أيضًا من عند الله, قال تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى} [النجم: 3] وجعل منه آية الوصية.

مواطن النسخ:

لا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي, ولو بلفظ الخبر, أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ, ومنه الوعد والوعيد, وإذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من أدخل في كتب النسخ كثيرًا من آيات الأخبار والوعد والوعيد.

أقسام النسخ: النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: نسخ التلاوة مع الحكم: قالت عائشة رضي الله عنها: كان فيما أنزل: "عشر رضعات معلومة", فنسخن بخمسٍ معلومات, فتوفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم, وهن مما يقرأ من القرآن, رواه الشيخان.

وقد تكلموا في قولها: وهن مما يقرأ, فإن ظاهره بقاء التلاوة, وليس كذلك.

وأجيب بأن المراد: قارب الوفاة, أو أن التلاوة نسخت أيضًا, ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم, فوفي وبعض الناس يقرؤها, ويمكن أن يكون مقصودها بقاء التلاوة بعد النسخ مدة محدودة, ثم نسخ اللفظ.

الضرب الثاني: النسخ للحكم دون التلاوة: وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة, وهو على الحقيقة قليل جدًا, وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه, فإن المحققين منهم كالقاضي أبي بكر بن العربي بين ذلك وأتقنه.

ومنه: قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [البقرة: 181] الآية, فهذه الآية تفيد وجوب الوصية للورثة, وهي منسوخة, قيل: بآية المواريث, وقيل: بحديث (ألا لا وصية لوارث), وقيل: بالإجماع, حكاه ابن العربي.

ومنه: قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ} [البقرة: 240] منسوخة بآية أربعة أشهر

وعشرًا, وهي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [البقرة: 234].

الحكمة في نسخ الحكم دون التلاوة:

فإن قلت: ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

فالجواب من وجهين:

- أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به, كذلك يتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه, فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

- والثاني: أن النسخ غالبًا يكون للتخفيف, فأبقيت التلاوة تذكيرًا للنعمة برفع المشقة.

وأما ما ورد في القرآن ناسخًا لما كان عليه الجاهلية, أو كان في شرع من قبلنا, أو في أول الإسلام, فهو أيضًا قليل العدد, كنسخ استقبال بيت المقدس بآية القبلة, وصوم عاشوراء بصوم رمضان.

الضرب الثالث: ما نسخ تلاوته دون حكمه: يعني أن النسخ هنا بالنسبة للتلاوة فقط, فلا تثبت قرآنيته, فلا يثاب على قراءته ثواب القرآن, وأما حكمه فباق يعمل به.

وأمثلة هذا الضرب كثيرة: **منها:** آية الرجم, وهي (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله, والله عزيز حكيم) فنسخت وبقي حكمها.

وحكمة هذا الضرب: ظهور طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس استجابة لحكم الله, من غير استفصال أو توقف أو قياس, فيسرعون بأيسر شيء كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام, وهو أدنى طريق الوحي.

قاعدة في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض

كلامه تعالى منزه عن ذلك كما قال: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [النساء:82] ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافًا, وهو منزه عن ذلك في الحقيقة, فاحتيج لإزالته, كما صنف في مختلف الحديث, وبيان الجمع بين الأحاديث المتعارضة, وقد تكلم في ذلك ابن عباس, وحكي عنه التوقف في بعضها.

روى عبد الرزاق في تفسيره بسنده قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: رأيت أشياء تختلف عَلَيَّ من القرآن, فقال ابن عباس: ما هو؟ أشكٌّ؟ قال: ليس بشك ولكنه اختلاف, قال: هات ما اختلف عليك من ذلك! قال: أسمع الله يقول: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: 23] وقال: {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [النساء: 42] فقد كتموا, وأسمعه يقول: {فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ} [المؤمنون: 101], ثم قال: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ} [الصافات: 27], وقال: {أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: 9] حتى بلغ: {طَائِعِينَ} [فصلت: 11]

ثم قال في الآية الأخرى: {أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا} [النازعات: 27] ثم قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: 30], وأسمعه كأنه يقول: {كَانَ اللَّهُ} ما شأنه يقول: {كَانَ اللَّهُ} ؟ فقال ابن عباس: أما قوله: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: 23] فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله يغفر لأهل الإسلام, ويغفر الذنوب ولا يغفر شركًا, ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره, جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم, فقالوا والله ربنا ما كنا مشركين, فختم الله على أفواههم, فتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون, فعند ذلك يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض, ولا يكتمون الله حديثًا.

وأما قوله: {فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ} [المؤمنون: 101] فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله, فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون, ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون, وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأما قوله: {خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: 9] فإن الأرض خلقت قبل السماء, وكانت السماء دخانًا فسواهن سبع سموات في يومين, بعد خلق الأرض.

وأما قوله: {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: 30] يقول جعل فيها جبلاً وجعل فيها نهرًا وجعل فيها شجرًا, وجعل فيها بحورًا.

وأما قوله: {كان الله} فإن الله كان ولم يزل كذلك وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير, لم يزل كذلك, فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك, وإن الله لم ينزل شيئًا إلا وقد أصاب به الذي أراد, ولكن أكثر الناس لا يعلمون, أخرجه بطوله الحاكم في "المستدرك" وصححه, وأصله في الصحيح.

قاعدة في مطلقه ومقيده

المطلق: الدال على الماهية بلا قيد, وهو مع المقيد كالعام مع الخاص.

قال العلماء متى وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه, وإلا فلا, بل يبقى المطلق على إطلاقه, والمقيد على تقييده, لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب.

والضابط أن الله إذا حكم بصفة أو شرط, ثم ورد حكم آخر مطلقًا نظر, فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به, وإن كان له أصل يرد إليه غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر:

فالأول: مثل اشتراط العدالة في الشهود على الرجعة والفراق والوصية في قوله: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} [الطلاق: 2] وقوله: {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ

مِّنكُمْ} [المائدة: 106] وقد أطلق الشهادة في البيوع وغيرها في قوله: {وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ} [البقرة: 282], {فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ} [النساء: 6], والعدالة شرط في الجميع.

وكذلك ما اشترط في كفارة القتل من الرقبة المؤمنة, وإطلاقها في كفارة الظهار واليمين, والمطلق كالمقيد في وصف الرقبة.

وكذلك تقييد الأيدي بقوله: {إِلَى الْمَرَافِقِ} [المائدة: 6] في الوضوء وإطلاقه في التيمم.

وتقييد إحباط العمل بالردة بالموت على الكفر في قوله: {وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ} [البقرة: 217] وأطلق في قوله: {وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} [المائدة: 5].

وتقييد تحريم الدم بالمسفوح في الأنعام, وأطلق فيما عداها.

فمذهب الشافعي حمل المطق على المقيد في الجميع.

ومن العلماء من لا يحمله, ويجوز إعتاق الكافرة في كفارة الظهار واليمين, ويكتفي في التيمم بالمسح إلى الكوعين, ويقول: إن الردة تحبط العمل بمجردها.

<u>والثاني:</u> مثل تقييد الصوم بالتتابع في كفارة القتل والظهار, وتقييده بالتفريق في صوم التمتع, وأطلق كفارة اليمين وقضاء رمضان, فيبقى على إطلاقه من جوازه مفرقًا ومتتابعًا.

قاعدة في منطوقه ومفهومه

المنطوق: ما دل عليه اللفظ في محل النطق, فإذا أفاد معنى لا يحتمل غيره فالنص, نحو: {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: 196] أو مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحًا فالظاهر, نحو: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [البقرة: 176] فإن الباغي يطلق على الجاهل وعلى الظالم, وهو فيه أظهر وأغلب, ونحو: {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ} [البقرة: 222] فإنه يقال للانقطاع طهر, وللوضوء والغسل, وهو في الثاني أظهر, فإن حُمِل على المرجوح لدليل فهو **تأويل,** ويسمى المرجوح المحمول عليه مؤولاً, كقوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [الحديد: 4] فإنه يستحيل حمل المعية على القرب بالذات, فتعين صرفه عن ذلك وحمله على القدرة والعلم, أو على الحفظ والرعاية, وكقوله: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [الإسراء: 24] فإنه يستحيل حمله على الظاهر, لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة, فيحمل على الخضوع وحسن الخلق.

والمفهوم: ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق, **وهو قسمان:**

مفهوم موافقة, ومفهوم مخالفة:

فالأول: ما يوافق حكمه المنطوق: فإن كان أولى سمي (فحوى الخطاب), كدلالة {فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ} [الإسراء: 23] على تحريم الضرب لأنه أشد, وإن كان مساويًا سمي (لحن الخطاب) أي معناه, كدلالة {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} [النساء: 10] على تحريم الإحراق, لأنه مساوٍ للأكل في الإتلاف.

والثاني: ما يخالف حكمه المنطوق: وهو أنواع:

مفهوم صفة: نعتًا كان أو حالاً أو ظرفًا أو عددًا, نحو: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: 6] مفهومه: أن غير الفاسق لا يجب التبين في خبره, فيجب قبول خبر الواحد العدل.

وشرط: نحو: {وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ} [الطلاق: 6] أي فغير أولات الحمل لا يجب الإنفاق عليهن.

وغاية: نحو: {فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} [البقرة: 230] أي فإذا نكحته فإنها تحل للأول بشرطه.

وحصر: نحو: {لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [الصافات: 35], {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ} [طه: 98] أي فغيره ليس بإله، {فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ} [الشورى: 9] أي فغيره ليس بولي، {لإِلَى الله تُحْشَرُونَ} [آل عمران: 158] أي لا إلى غيره، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: 5] أي لا غيرك.

واختلف في الاحتجاج بهذه المفاهيم على أقوال كثيرة, والأصح في الجملة أنها كلها حجة بشروط تطلب في كتب الأصول.

قاعدة في وجوه مخاطباته

الخطاب في القرآن على ثلاثة أقسام:

الأول: قسم لا يصلح إلا للنبي صلّى الله عليه وسلَّم: وهو الذي يسمى بالخصائص, ومنه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} [المائدة: 67], {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: 45] ومنه آية الأحزاب المبدوءة بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ} [الأحزاب: 50] وفي آخرها يقول سبحانه وتعالى: {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}.

الثاني: قسم لا يصلح إلا لغيره: وذلك كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً} [المجادلة: 12], ويدخل في هذا الباب الخطابات الموجهة للأنبياء السابقين, كقوله: {يا نوح} و{يا موسى} و{يا داود}.

الثالث: قسم يصلح له وللأمة: وذلك يشمل أكثر الأحكام التشريعية الواردة في القرآن التي لم يرد دليل على أنها خاصة به صلّى الله عليه وسلّم, ومنه قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء} [الطلاق: 1].

قاعدة في حقيقته ومجازه

لا خلاف في وقع الحقائق في القرآن, **والحقيقة:** هي اللفظ المستعمل فيما وضع له ابتداء, والتحقيق: أنها ما استعمل فيما اصطلحوا عليه من الجماعة المخاطبة.

وأما المجاز: فالجمهور أيضًا على وقوعه فيه, وأنكره جماعة, ودليلهم أن المجاز أخو الكذب, والقرآن منزه عنه, وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير, وذلك محال على الله تعالى.

وهذا دليل باطل, ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن, فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة, ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص وغيرها.

أقسام المجاز: والمجاز قسمان:

الأول: المجاز في التركيب, ويسمى مجاز الإسناد, والمجاز العقلي: وعلاقته الملابسة. وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالة لملابسته له, كقوله تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: 2] نسبة الزيادة وهي فعل الله إلى الآيات لكونها سببًا لها.{يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ} [القصص: 4], {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي} [غافر: 36] نسب الذبح وهو فعل الأعوان إلى فرعون, والبناء وهو فعل العملة إلى هامان لكونهما آمرين به.

وكذا قوله: {وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم: 28] نسب الإحلال إليهم, لتسببهم في كفرهم بأمرهم إياهم به.

ومنه قوله تعالى: {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [المزمل: 19] نسب الفعل إلى الظرف, لوقوعه فيه{عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} [الحاقة: 21] أي راض صاحبها.

القسم الثاني: المجاز في المفرد, ويسمى المجاز اللغوي: وهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أولاً. **وأنواعه كثيرة:**

أحدها: الحذف: نحو: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: 82] أي أهلها.

الثاني: الزيادة: نحو: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11] أي ليس مثله شيء, وفيه نظر.

الثالث: إطلاق اسم الكل على الجزء: *نحو:* {يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم} [البقرة: 19] أي أناملهم. ونكتة التعبير عنها بالأصابع الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة من الفرار, فكأنهم جعلوا الأصابع. {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} [المنافقون: 4] أي وجوههم،لأنه لم ير جملتهم.

الرابع: عكسه: نحو{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: 27] أي ذاته، {فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: 144] أي ذواتكم, إذ الاستقبال يجب بالصدر،{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ} [الغاشية: 8], {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ, عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ} [الغاشية: 2-3]عبر بالوجوه عن جميع الأجساد لأن التنعم والنصب حاصل لكلها.

الخامس: تسمية الشيء باسم ما كان عليه: نحو{وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} [النساء: 2] أي الذين كانوا يتامى, إذ لا يُتْمَ بعد البلوغ{فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ} [البقرة: 232] أي الذين كانوا أزواجهم،{إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا} [طه: 74] سماه مجرمًا باعتبار ما كان في الدنيا من الإجرام.

السادس: تسميته باسم ما يؤول إليه: نحو: {إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا} [يوسف: 36] أي عنبًا يؤول إلى الخمرية،{وَلَا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نوح: 27] أي صائرًا إلى الكفر والفجور،{حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} [البقرة: 230] سماه زوجًا لأن العقد يؤول إلى زوجية, لأنها لا تنكح إلا في حال كونه زوجًا،{فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [الصافات: 101], {نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} [الحجر: 53] وصفه في حال البشارة بما يؤول إليه من العلم والحلم.

السابع: إطلاق اسم الحالّ على المحلّ: نحو: {فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: 107] أي في الجنة لأنها محل الرحمة، {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ} [سبأ: 33] أي في الليل{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ} [الأنفال: 43] أي في عينك, على قول الحسن رحمه الله.

الثامن: تسمية الشيء باسم آلته: نحو: {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [الشعراء: 84] أي ثناءً حسنًا لأن اللسان آلته،{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ} [إبراهيم: 4] أي بلغة قومه.

التاسع: إطلاق الفعل والمراد مشارفته ومقاربته وإرادته: نحو: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ} [الطلاق: 2] أي قاربن بلوغ الأجل, أي انقضاء العدة, لأن الإمساك لا يكون بعده, وهو في قوله: {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ} [البقرة: 232] حقيقة{فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: 34] أي فإذا قرب مجيئه،{إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ} [المائدة: 6] أي أردتم القيام، {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ} [النحل: 98] أي أردت القراءة, لتكون الاستعاذة قبلها،{وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا} [الأعراف: 4] أي أردنا إهلاكها, وإلا لم يصح العطف بالفاء.

قاعدة في الحصر والاختصاص

الحصر ويقال له "القصر": هو تخصيص أمر بأمر آخر بطريق مخصوص, ويقال أيضًا: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

وينقسم إلى: قصر الموصوف على الصفة, وقصر الصفة على الموصوف.

ومثال قصر المصوف على الصفة: قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ} [آل عمران: 144] أي إنه مقصور على الرسالة لا يتعداها إلى التبري من الموت الذي استعظموه. والذي هو من شأن الإله.

ومثال قصر الصفة على الموصوف: {لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ} [الصافات: 35].

طرق الحصر: وطرق الحصر كثيرة:

أحدها: النفي والاستثناء: سواء كان النفي بلا أو بما أو غيرهما, والاستثناء بإلا أو غير, نحو: {لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ} [الصافات: 35], {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ} [آل عمران: 62].

الثاني: إنما: فالجمهور على أنه للحصر, ومنها قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ} [البقرة: 173] ومنها قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ} [الأحقاف: 23], {قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ} [هود: 33].

الثالث: تقديم المعمول: نحو{إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: 5] أي لا غيرك.

الرابع: ضمير الفصل: نحو{فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ} [الشورى: 9] أي لا غيره،{وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: 5], {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [آل عمران 62].

قاعدة في الإيجاز والإطناب

الإيجاز: هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها, وافية بالغرض المقصود, مع الإبانة والإفصاح.

أنواع الإيجاز: يقسم الإيجاز إلى قسمين: إيجاز قصر, وإيجاز حذف.

فإيجاز القصر ويسمى (إيجاز البلاغة): يكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف, كقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ } [البقرة: 179] فإن معناه كثير, ولفظهُ يسير،إذ المراد أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتل امتنع عن القتل, وفي ذلك حياته وحياة غيره, لأن القتل أنفى للقتل, وبذلك تطول الأعمار, وتكثر الذرية, ويقبل كل واحد على ما يعود عليه بالنفع, ويتم النظام, ويكثر العمران, فالقصاص هو سبب ابتعاد الناس عن القتل, فهو الحافظ للحياة.

ومن ذلك قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199] فهذه الآية قد جمعت مكارم الأخلاق, وانطوى تحتها كل دقيق وجليل, إذ في العفو الصفحُ عمن أساء....

وفي الأمر بالمعروف صلة الأرحام, ومنع اللسان عن الكذب, وغض الطرف عن كل المحارم.

وقوله عز اسمه: {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ} [البقرة: 164] استوعبت تلك الآية الكريمة أنواع المتاجر وصنوف المرافق التي لا يبلغها العدد.

وقوله: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف: 54] هاتان كلمتان أحاطتا بجميع الأشياء على غاية الاستقصاء.

وهذا القسم مطمح نظر البلغاء, وبه تتفاوت أقدارهم, حتى إن بعضهم سئل عن البلاغة, فقال: هي إيجاز القصر.

وقال أكثم بن صيفي خطيب العرب: البلاغة الإيجاز, ومنه قوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى} [النحل: 90] فإن العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط, المومى به إلى جميع الواجبات في الاعتقاد والأخلاق والعبودية, والإحسان هو الإخلاص في واجبات العبودية لتفسيره في الحديث بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه) أي تعبده مخلصًا في نيتك, وواقفًا في الخضوع, آخذًا أهبة الحذر إلى ما لا يحصى،{وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى} هو الزيادة على الواجب من النوافل, هذا في الأوامر.

وأما النواهي ففي قوله: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ} [النحل: 90] فبالفحشاء الإشارة إلى القوة الشهوانية, وبالمنكر إلى الإفراط الحاصل من آثار الغضبية وكل محرم شرعًا, وبالبغي إلى الاستعلاء الفائض عن الوهمية, ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما في القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه الآية،أخرجه في "المستدرك".

وإيجاز الحذف: يكون بحذف شيء من العبارة لا يخل بالفهم, مع وجود ما يدل على المحذوف, من قرينة لفظية أو معنوية, وذلك المحذوف إمّا أن يكون:

1- **حرفًا**: كقوله تعالى: {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} [مريم: 20] أصله: ولم أكن.

2- أو اسما مضافًا: نحو: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج: 78] أي في سبيل الله.

3- أو اسمًا مضافًا إليه: نحو: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} [الأعراف: 142] أي بعشر ليال.

4- أو اسمًا موصوفًا: كقوله تعالى: {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [الفرقان: 72] أي عملاً صالحًا

5- أو اسمًا صفةً: نحو: {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: 125] أي مضافًا إلى رجسهم.

6- أو شرطًا: نحو: {فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ} [آل عمران: 31] أي فإن تتبعوني.

7- أو جواب شرط: نحو: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} [الأنعام: 27] أي لرأيت أمرًا فظيعًا.
8- أو مسندًا: نحو: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: 25] أي خلقهن الله.

دواعي الإيجاز: دواعي الإيجاز كثيرة, وهي التي تسمى بأسباب الإيجاز:

فمنها: مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره.

ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف, وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم, وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء, وقد اجتمعا في قوله تعالى: {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} [الشمس: 13] فناقة الله تحذير بتقدير (ذروا), وسقياها إغراء بتقدير (الزموا).

ومنها: التفخيم والإعظام لما فيه من الإبهام, ومنه قوله في وصف أهل الجنة: {حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: 73] فحذف الجواب, إذا كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى, فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه, وتركت النفوس تقدّر ما شاءته, ولا تبلغ مع ذلك كنه ما هناك.

وكذا قوله: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} [الأنعام: 27] أي لرأيت أمرًا فظيعًا لا تكاد تحيط به العبارة.

ومنها: التخفيف لكثرة دورانه في الكلام, كما في حذف حرف النداء, نحو: {يُوسُفُ أَعْرِضْ} [يوسف: 29].

ومنها: رعاية الفاصلة, نحو: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: 3] أي وما قلاك.

<u>الإطناب:</u> الإطناب هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة, أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء, لفائدة تقوية وتوكيده, والقرآن منزه عن الحشو والتطويل, فهو أساس البلاغة وميزان الفصاحة.

واعلم, أن دواعي الإطناب كثيرة: منها: تثبيت المعنى وتوضيح المراد, والتوكيد, ودفع الإيهام, وإثارة الحمية, وغير ذلك.

وأنواع الإطناب كثيرة:

منها: ذكر الخاص بعد العام: كقوله تعالى: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} [البقرة: 238].

وفائدته: التنبيه على مزية وفضل في الخاص, حتى كأنه لفضله ورفعته جزءٌ آخر مغاير لما قبله, ولهذا خص الصلاة الوسطى (وهي العصر) بالذكر لزيادة فضلها.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص: كقوله تعالى: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [نوح: 28].

وفائدته: شمول بقية الأفراد والاهتمام بالخاص لذكره ثانيًا في عنوان عام بعد ذكره أولاً في عنوان خاص.

ومنها: الإيضاح بعد الإبهام: لتقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين, مرة على سبيل الإبهام والإجمال, ومرة على سبيل التفصيل والإيضاح, فيزيده ذلك نبلاً وشرفًا, كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ, تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [الصف: 9-10].

ومنها: قصد الاستيعاب: نحو: قرأت الكتاب بابًا بابًا, وفهمته كلمة كلمة.

ومنها: زيادة الترغيب في العفو: كقوله تعالى: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التغابن: 14].

ومنها: الترغيب في قبول النصح: باستمالة المخاطب لقبول الخطاب, كقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ, يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر: 38-39] ففي تكرير{يا قوم} تعطيف لقلوبهم, حتى لا يشكّو في أخلاصه لهم في نصحه.

قاعدة في تشبيهه واستعارته

التشبيه: نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها.

قال المبرّد في "الكامل": لو قال قائل: هو أكثر كلام العرب لم يبعد, وقد أفرد تشبيهات القرآن بالتصيف أبو القاسم بن البندار البغدادي في كتاب سماه "الجمان".

وعرفه جماعة ومنهم السكاكي: بأنه الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى.

وأدواته: حروف وأسماء وأفعال:

فالحروف: **"الكاف"** نحو: كرماد, من قوله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ} [إبراهيم: 18] و**"كأنه"** نحو: {كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصافات: 65].

والأسماء **"مثل"** و**"شبه"** ونحوهما مما يشتق من المماثلة والمشابهة, قال الطيبي: ولا يستعمل "مثل" إلا في حال, أو صفة لها شأن وفيها غرابة, نحو قوله سبحانه وتعالى: {مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ} [آل عمران: 117].

الاستعارة القرآنية: الاستعارة: هي اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي.

وقال بعضهم: حقيقة الاستعارة أن تستعار الكلمة من شيء معروف بها إلى شيء لم يعرف بها, *وحكمة ذلك:* إظهار الخفي وإيضاح الظاهر الذي ليس بجلي،أو حصول المبالغة, أو المجموع.

مثال إظهار الخفي قوله تعالى: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ} [الزخرف: 4] فإن حقيقته: وإنه في أصل الكتاب, فاستعير لفظ الأم للأصل, لأن الأولاد تنشأ من الأم, كما تنشأ الفروع من الأصول, وحكمة ذلك: تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئيًا, فينتقل السامع من حد السماع إلى حد العيان, وذلك أبلغ في البيان.

ومثال إيضاح ما ليس بجلي ليصير جليًا قوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ} [الإسراء: 24] فإن المراد: أمر الولد بالذل لوالديه رحمة, فاستعير للذل أولاً جانب, ثم للجانب جناح, وتقدير الاستعارة القريبة: واخفض لهما جانب الذل: أي اخفض جانبك ذلاً, وحكمة الاستعارة في هذا جعل ما ليس بمرئي مرئيًا لأجل حسن البيان, ولما كان المراد خفض جانب الولد للوالدين بحيث لا يبقي الولد من الذل لهما والاستكانة ممكنًا احتيج في الاستعارة إلى ما هو أبلغ من الأولى, فاستعير لفظ الجناح لما فيه من المعاني التي لا تحصل من خفض الجانب, لأن من يميل جانبه إلى جهة السفل أدنى ميل صدق عليه أنه خفض جانبه, والمراد خفض يلصق الجانب بالأرض, ولا يحصل ذلك إلا بذكر الجناح كالطائر.

ومثال المبالغة قوله تعالى: {وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا} [القمر: 12] وحقيقته: وفجرنا عيون الأرض, ولو عبر بذلك لم يكن فيه من المبالغة ما في الأول المشعر بأن الأرض كلها صارت عيونًا.

قاعدة في كنايته وتعريضه

هما من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة, ***والكناية*** أبلغ من التصريح, وعرفها أهل البيان: بأنها لفظ أريد به لازم معناه.

وللكناية أساليب:

منها: التنبيه على عظم القدرة: نحو قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} [الأعراف: 189] كناية عن آدم.

ومنها: أن يكون التصريح مما ستقبح ذكره: كناية الله عن الجماع بالملامسة, والمباشرة, والإفضاء, والرفث, والدخول, والسر في قوله تعالى: {وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا} [البقرة: 235].

ومنها: قصد البلاغة والمبالغة: نحو قوله تعالى: {أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} [الزخرف: 18] كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترفه والتزين الشاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني, ولو أتي بلفظ "النساء" لم يشعر بذلك, والمراد: نفي ذلك عن الملائكة, وقوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64] كناية عن سعة جوده وكرمه جدًّا.

ومنها: التنبيه على مصيره: نحو قوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد: 1] أي جهنمي مصيره إلى اللهب, ونحو قوله تعالى: {حَمَّالَةَ الْحَطَبِ, فِي جِيدِهَا حَبْلٌ} [المسد: 4-5] أي نمّامة مصيرها إلى أن تكون حطبًا لجهنم, في جيدها غلّ.

التعريض: أما التعريض: فهو قريب من الكناية, والفرق بينهما دقيق:

قال الحافظ السيوطي: وللناس في الفرق بين الكناية والتعريض عبارات متقاربة, فقال الزمخشري**: الكناية**: ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له, **والتعريض:** أن تذكر شيئًا تدل به على شيء لم تذكره, وقال السكاكي: **التعريض:** ما سيق لأجل موصوف غير مذكور, ومنه أن يخاطب واحد ويراد غيره, ومنه قوله تعالى**:** {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [البقرة: 253] أي محمدًا صلّى الله عليه وسلَّم إعلاءً لقدره, أي أنه العلم الذي لا يشتبه, ومنه قوله تعالى: {وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} [يس: 22] أي وما لكم لا تعبدون بدليل قوله تعالى{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس: 22] وكذا قوله تعالى: {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً} [يس: 23] ووجه حسنه إسماع من يقصد خطابه الحق على وجه يمنع غضبه, إذا لم يصرح بنسبته للباطل, والإعانة على قبوله, إذا لم يرد له إلا ما أراده لنفسه, ومنه قوله تعالى: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: 65] خوطب النبي صلّى الله عليه وسلَّم وأريد غيره, لاستحالة الشرك عليه شرعًا.

الخبر والإنشاء في القرآن

اعلم, أن الحذاق من النحاة وغيرهم وأهل البيان قاطبة على انحصار الكلام في الخبر والإنشاء, وأنه ليس له قسم ثالث, **والخبر:** هو الذي يدخله الصدق والكذب, **والإنشاء** بخلافه.

والقصد بالخبر: إفادة المخاطب.

وقد يرد بمعنى **الأمر** نحو: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ} [البقرة: 223] والمقصود الأمر بالإرضاع أي: أرضعن، {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ} [البقرة: 228] والمقصود الأمر بالتربص يعني تربصن.

وبمعنى **النهي** نحو: {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: 79] فكأنه يقول لغير المطهرين: لا تمسوه.

وبمعنى **الدعاء,** نحو**:** {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5] أي أعنَّا, ومنه: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد:1] فإنه دعاء عليه.

أنواع الإنشاء: الإنشاء له أنواع خمسة: الأمر, والنهي, والاستفهام, والتمني, والنداء.

الاستفهام: فالاستفهام: طلب الفهم, وهو بمعنى الاستخبار, وأدواته كثيرة, منها: الهمزة, وهل, وما.

وبرد الاستفهام لمعان متعددة:

منها: الإنكار: ويسمى حينئذ **الاستفهام الإنكاري,** والمعنى فيه على النفي, وما بعده منفي, ولذلك تصحبه (إلا) كقوله: {فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف: 35].

ومنها: التوبيخ: ويعبر عن ذلك **بالتقريع** أيضًا نحو: {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [طه: **93],** {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} [الصافات: 95], {أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} [الصافات: 125].

ومنها: التقرير: وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده, ومنه قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: 1] وقوله: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} [الضحى: 6]**.**

ومنها: الترغيب: نحو: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [البقرة: 245], {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم} [البقرة: 10]**.**

ومنها: الدعاء: وهو كالنهي, إلا أنَّه من الأدنى إلى الأعلى, نحو: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء} [الأعراف: 155] أي لا تهلكنا.

الأمر: ومن أقسام الإنشاء الأمر, وهو طلب فعل غير كف, أي ترك, وصيغته: **"افعل"** و**"ليفعل"** وهي حقيقة في الإيجاب, نحو: {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [الأنعام: 72] {فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ} [النساء: 102].

ويرد مجازًا لمعان أخر, منها:

الندب: نحو: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ} [الأعراف: 204].

والإباحة: نحو: {فَكَاتِبُوهُمْ} [النور: 33] نص الشافعي على أن الأمر فيه للإباحة, ومنه: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} [المائدة: 2] فقوله: اصطادوا أمر وهو للإباحة.

والدعاء من السافل للعالي: نحو: {رَبِّ اغْفِرْ لِي} [الأعراف: 151] فقلوه إغفر أمر وهو دعاء.

والتهديد: نحو: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} [فصلت: 40] إذ ليس المراد بكل عمل شاؤوا.

والتعجيز: نحو{فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} [البقرة: 23] إذ ليس المراد طلب ذلك منهم, بل إظهار عجزهم.

والتكذيب: نحو{قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا} [آل عمران: 93]{قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا} [الأنعام: 150].

النهي: ومن أقسام الإنشاء **النهي,** وهو طلب الكف عن فعل, وصيغته: **"لا تفعل"** وهي حقيقة في التحريم.

ويرد مجازًا لمعان:

منها: الدعاء: نحو: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا} [آل عمران: 8].

ومنها: الإرشاد: نحو: {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [المائدة: 101].

ومنها: التسوية: نحو: {فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا} [الطور: 17].

التمني: ومن أقسام الإنشاء **التمني,** وهو طلب الشيء المحبوب الذي لا يُرجى ولا يتوقَّع حصوله.

1- إما لكونه مستحيلاً, كقوله تعالى: { يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ: 40**].**

2- إما لكونه (قد يكون: أو لكونه) ممكنًا غير مطموع في نيله, كقوله تعالى: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ} [القصص: 79].

أما إذا كان الأمر المحبوب مما يرجى حصوله, فيسمى طلبه ترجيًا ويعبر فيه بـ**"عسى"** و**"لعل"** كقوله تعالى: {لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: 1] و{فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ} [المائدة: 52].

وللتمني أربع أدوات: واحدة أصيلة وهي **"ليت"**, وثلاث غير أصيلة نائبة عنها, ويتمنى بها لغرض بلاغي, وهي:

1- **هل:** كقوله تعالى: {فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا} [الأعراف: 53]

2- ولو: كقوله تعالى: {فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 102].

3- ولعلّ: كقوله تعالى**:** {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} [المؤمنون: 100].

مناسبة الآيات والسور

المناسبة في اللغة: المشاركة والمقاربة, ومرجعها الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص, عقلي أو حسي أو خيالي, أو غير ذلك من أنواع العلاقات, أو التلازم الذهني, كالسبب والمسبب, والعلة والمعلول, والنظيرين والضدين ونحوه.

وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض, فيقوى بذلك الارتباط, ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

وقد أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير, شيخ أبي حيان في كتاب "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن", والشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" وللسيوطي جزء لطيف سماه "تناسق الدرر في تناسب السور".

وعلم المناسبة علمٌ شريف, قلّ اعتناء المفسرين به لدقته وممن أكثر فيه الإمام فخر الدين, وقال في "تفسيره": أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

وقال الشيخ: عز الدين بن عبد السلام: المناسبة علم حسن, لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع أمر متحد مرتبط أوله بآخره, فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط, ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه, فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة, في

أحكام مختلفة, شرعت لأسباب مختلفة, وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.

إعجاز القرآن

اعلم أن **المعجزة**: أمر خارق للعادة, مقرون بالتحدّي, سالم عن المعارضة, وهي إمّا حسية وإمّا عقلية, وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّية, لبلادتهم وقلّة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمّة عقليّة, لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم, ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة, خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر, كما قال صلّى الله عليه وسلّم: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر, وإنّما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ, فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا) أخرجه البخاري.

قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم, فلم يشاهدها إلا من حضرها, ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة, وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات, فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون, يدلّ على صحة دعواه.

وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسّيّة تشاهد بالأبصار, كناقة صالح, وعصا موسى, ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة, فيكون من يتبعه لأجلها أكثر, لأن الذي يشاهَد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده, والذي يشاهَد بعين العقل باقٍ, يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا.

ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته بعد تحدّيهم بذلك, ولما جاء به النبي صلّى الله عليه وسلّم إليهم, وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء, وتحدّاهم على أن يأتوا بمثله, وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا, كما قال تعالى: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ} [الطور: 34] ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ, فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ} [هود:13-14], ثم تحدّاهم بسورة في قوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} [يونس: 38] ثم كرّر تحدّيهم في قوله: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} [البقرة: 23], فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء, نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن, فقال: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88] هذا وهم الفصحاء اللدّ, وقد

كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره, وإخفاء أمره, فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعًا للحُجَّة, ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدّث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه, بل عدلوا إلى العناد تارة, وإلى الاستهزاء تارة أخرى, فتارة قالوا: سحرٌ, وتارة قالوا: شعرٌ, وتارة قالوا: أساطيرُ الأولين, كلُّ ذلك من التحيُّر والانقطاع.

يقول الوليد بن المغيرة عن القرآن لما سمعه وطلب منه قومه أن يقول في شأن القرآن كلمة ترضيهم: وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني, ولا برجزه ولا بقصيده. ولا بأشعار الجنّ, والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا, ووالله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة, وإن عليه لطلاوة, وإنه لمثمر أعلاه, مغدق أسفله, وإنه ليعلو ولا يعلى عليه, وإنه ليحطم ما تحته.

وجه إعجازه:

قال الإمام فخر الدين: وجه الإعجاز, الفصاحة وغرابة الأسلوب, والسلامة من جميع العيوب.

قال الزملكاني: وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاصّ به, لا مطلق التأليف, بأن اعتدلت مفرداته تركيبًا وزنة, وعلت مركباته معنى.

وقال ابن عطية: الصحيح والذي عليه الجمهور والحذّاق في وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه, وتوالي فصاحة ألفاظه, وذلك أن الله أحاط بكلِّ شيء علمًا, وأحاط بالكلام كلِّه علمًا, فإذا رتب اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تلي الأولى, وتبين المعنى بعد المعنى, ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره, والبشر يعمّهم الجهل والنسيان والذهول. ومعلوم ضرورة, أن أحدًا من البشر لا يحيط بذلك, فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة, وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله. فصرفوا عن ذلك والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط, ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً, ثم ينظر فيها فيغير فيها, وهلم جرّا, وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة, ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد, ونحن تتبيّن لنا البراعة في أكثره, ويخفى علينا وجهها في مواضع, لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق, وجودة القريحة, وقامت الحجة على العالم بالعرب, إذ كانوا أرباب الفصاحة, ومظنّة المعارضة, كما قامت الحجّة في معجزة موسى بالسحرة, وفي معجزة عيسى بالأطبّاء, فإن الله إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبدع ما يكون في زمن النبيّ الذي أراد إظهاره, فكان السحر قد انتهى في مدّة موسى إلى غايته, وكذلك الطبّ في زمن عيسى, والفصاحة في زمن محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

تنبيهان:

الأوّل: اختلف في تفاوت القرآن في مراتب الفصاحة بعد اتّفاقهم على أنّه في أعلى مراتب البلاغة, بحيث لا يوجد في التراكيب ما هو أشدُّ تناسبًا ولا اعتدالاً في إفادة ذلك المعنى منه, فاختار القاضي المنع, وأنّ كلَّ كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا, وإن كان بعض الناس أحسن إحساسًا له من بعض, واختار أبو نصر القشيريّ وغيره التفاوت, ففي القرآن الأفصح والفصيح.

الثاني: قيل: الحكمة في تنزيه القرآن عن الشعر الموزون, مع أن الموزون من الكلام رتبته فوق رتبة غيره, أن القرآن منبع الحقِّ, ومجمع الصدق, وقصارى أمر الشاعر التخييل, بتصوُّر الباطل في صورة الحقِّ, والإفراط في الإطراء, والمبالغة في الذم والإيذاء, دون إظهار الحقِّ وإثبات الصدق, ولهذا نزَّه الله نبيَّه عنه, ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمَّى أصحاب البرهان القياسات المؤدّية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعريّة, وقال بعض الحكماء: لم يُرَ متديِّن صادق اللهجة مفلقًا في شعره.

عناية العلماء بالعلوم المستنبطة من القرآن

قال تعالى: {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ} [الأنعام: 38] وقال: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} [النحل:89]

وقال صلّى الله عليه وسلَّم: (ستكون فتن) قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله, فيه نبأ ما قبلكم, وخبر ما بعدكم, وحكم ما بينكم/أخرجه الترمذي وغيره.

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه, قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن, فإن فيه خبر الأولين والآخرين, قال البيهقي: يعني أصول العلم.

وأخرج البيهقي عن الحسن, قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب, أودع علومها أربعة منها: التوراة, والإنجيل, والزبور, والفرقان, ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمّة شرح للسُّنّة, وجميع للسُّنُة شرح للقرآن.

وقال أيضًا: جميع ما حكم به صلّى الله عليه وسلَّم فهو مما فهمه من القرآن, ويؤيّد هذا قوله صلّى الله عليه وسلّم: إني لا أحل إلا ما أحل الله, ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه/أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في "الأم", وقال سعيد بن جبير رحمه الله: ما بلغني حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا حدثتكم بحديث أنباتكم بتصديقه من كتاب الله تعالى, أخرجهما ابن أبي حاتم.

وقال الشافعي أيضًا: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها, فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسُّنّة, قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة, لأن كتاب الله أوجب علينا اتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلَّم, وفرض علينا الأخذ بقوله.

وأخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات, والمستوشمات, والمتنمصات, والمتفلجات للحسن, المغيّرات خلقَ الله تعالى, فبلغ ذلك امرأة من بني أسد, فقالت له: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت, فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم, وهو في كتاب الله تعالى, فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه كما تقول, قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه, أما قرأتك: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: 7] قالت: بلى, قال: فإنه قد نهى عنه.

وحكى ابن سراقة في كتاب "الإعجاز" عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يومًا: ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله, فقيل له: فأين ذكر الخانات فيه؟ فقال: في قوله: {لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُم} [النور: 29] فهي الخانات.

وقال ابن أبي الفضل المرسي في "تفسيره": جمع القرآن علوم الأوّلين والآخرين, بحيث لم يحط بها علمًا حقيقة إلا المتكلِّم بها, ثم رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم, خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى, ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم, مثل الخلفاء الأربعة, وابن مسعود, وابن عباس, حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى, ثم ورث عنهم التابعون بإحسان, ثم تقاصرت الهمم, وفترت العزائم, وتضاءل أهل العلم, وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه, فنوّعوا علومه, وقامت كلُّ طائفة بفنٍّ من فنونه, فاعتنى قوم بضبط لغاته, وتحرير كلماته, ومعرفة مخارج حروفه, وعدد كلماته وآياته, وسوره وأحزابه, وأنصافه وأرباعه, وعدد سجداته, والتعليم عند كلِّ عشر آيات, إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة, والآيات المتماثلة, من غير تعرّض لمعانيه, ولا تدبّر لما أودع فيه, فسمّوا القرّاء.

وقد اجتهد أئمة فن في استخراج ما يناسب فنَّهم من بحر القرآن, فاعتنى به النحاة, والمفسرون, والأصوليون, واستخرجوا منه أنواعًا من العلوم الدينية والدنيوية, كالصنائع والفنون, وجميع المصالح المعيشيَّة.

الأمثال

الأمثال: جمع مثل, **والمثل:** هو كلام شُبّه مَضْرِبه بَمورِده واشتهر بين الخاصّة والعامّة بلفظه ومعناه, حتى شاع فيما بينهم, وفاهوا به

في السراء والضراء, واستعملوه في أساليبهم, وسهلوا به معرفة المعاني الصعبة وقربوها به إلى الأذهان.

والأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام, وبها كانت تعارض كلامها, فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح, فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ, وإصابة المعنى, وحسن التشبيه, وقد ضربها النبي صلّى الله عليه وسلّم وتمثل بها هو ومن بعده من السلف.

وقد اعتنى القرآن بضرب الأمثال عناية كبيرة, قال تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [الزمر: 27] وقال تعالى: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت: 43].

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر, وعلى المدح والذمّ, وعلى الثواب والعقاب, وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره, وعلى تحقيق أمر أو إبطاله, قال تعالى: {وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ} [إبراهيم: 45] فامتنَّ علينا بذلك لما تضمنته من الفوائد.

وقال الزركشي في "البرهان": ومن حكمته تعليم البيان, وهو من خصائص هذه الشريعة.

قال الماوردي: من أعظم القرآن علم أمثاله.

وقد عدَّه الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن.

أخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال, وحرام, ومحكم, ومتشابه, وأمثال, فاعملوا بالحلال, واجتنبوا الحرام, واتبعوا المحكم, وآمنوا بالمتشابه, واعتبروا بالأمثال.

أقسام الأمثال القرآنية: أمثال القرآن قسمان: ظاهر مصرح به, وكامن لا ذكر للمثل فيه:

الظاهر المصرح به:

منه قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: 17] ضرب فيها للمنافقين مثلين: مثلاً بالنار, ومثالاً بالمطر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل ضربه الله للمنافقين, كانوا يعتزون بالإسلام, فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء, فلما ماتوا سلبهم الله العزّ كما سلب صاحب النار ضوءه {وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ} [البقرة: 17] يقول: في عذاب, {أَوْ كَصَيِّبٍ} [البقرة: 18] هو المطر, ضرب مثله في القرآن {فِيهِ ظُلُمَاتٌ} [البقرة: 18] يقول: ابتلاء {وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} [البقرة: 18] تخويف {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} [البقرة: 20] يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين {كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ} [البقرة:20]

يقول: كلما أصاب المنافقون في الإسلام عزًا اطمأنوا, فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر, كقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} [الحج: 11] ومنه قوله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد: 17].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هذا مثل ضربه الله, احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها, {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً} [الرعد: 17] وهو الشك {وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [الرعد: 17] وهو اليقين, كما يجعل الحلي في النار, فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار, كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

ومنه قوله تعالى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [الأعراف: 58].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل ضربه الله للمؤمن, يقول: هو طيب وعمله طيب, كما أن البلد الطيب ثمرها طيب, والذي خبث ضرب مثلاً للكافر, كالبلد السبخة المالحة, والكافر هو الخبيث وعمله خبيث.

الكامن من الأمثال:

وأما الكامن: فقال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم, يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن, فهل تجد في كتاب الله: خير الأمور أوساطها؟ قال: نعم, في أربعة مواضع, قوله تعالى: {لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} [البقرة: 68] وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67] وقوله تعالى: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} [الإسراء: 29] وقوله تعالى: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً} [الإسراء: 110].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: ليس الخبر كالعيان؟

قال: في قوله تعالى: {قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: 260].

قلت: هل تجد: في الحركات البركات؟

قال: في قوله تعالى: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} [النساء: 100].

قلت: فهل تجد: كما تدين تدان؟

قال: في قوله تعالى: {مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: 123].

قلت: فهل تجد فيه: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؟

قال: {قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ} [يوسف: 64]
قلت: فهل تجد فيه قولهم: لا تلد الحية إلا حية؟
قال: في قوله تعالى: {وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نوح: 27].
قلت: فهل تجد فيه: للحيطان آذان؟
قال: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [التوبة: 47].
قلت: فهل تجد فيه: الجاهل مرزوق والعالم محروم؟
قال: {قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} [مريم: 75].
قلت: فهل تجد فيه: الحلال لا يأتيك إلا قوتًا, والحرام لا يأتيك إلا جزافًا؟
قال: {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ} [الأعراف: 123].

الأمثال من الألفاظ القرآنية

عقد جعفر بن شمس الخلافة في "كتاب الآداب" بابًا في ألفاظ من القرآن, جارية مجرى المثل, وهذا هو النوع البديعي المسمّى بإرسال المثل, وأورد من ذلك قوله تعالى: {لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} [النجم: 58], {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92], {الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ} [يوسف: 51], {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ} [يوسف: 78], {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [الحج: 10], {قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} [يوسف: 41], {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} [هود: 41], {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} [سبأ: 54], {لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ} [الأنعام: 67], {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ} [فاطر: 43], {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} [الإسراء: 85], {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [البقرة: 216], {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدثر: 38], {مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ} [المائدة: 99], {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ} [التوبة: 91], {هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ} [الرحمن: 60], {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً} [البقرة: 249], {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ} [يونس: 91], {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [الحشر: 14], {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: 14], {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: 53], {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ} [الأنفال: 23], {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: 13], {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقرة: 286], {قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ} [المائدة: 100], {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الروم: 41], {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: 73], {لِمِثْلِ هَذَا

{فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ} [الصافات: 61], {وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ} [ص:24],
{فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ} [الحشر: 2], في ألفاظ أخر.

القَسَم في القرآن

القسم: هو الحلف واليمين.

والمقصود من القسم في القرآن هو تحقيق الخبر وتوكيده وقد استشكل بعضهم وقوع القسم من الله فقال: ما معنى القسم منه تعالى؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم, وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده؟

وأجيب: بأن القرآن نزل بلغة العرب, ومن عاداتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرًا.

وأجاب أبو القاسم القشيري: بأن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها, وذلك لأن الحكم يفصل باثنين. إما بالشهادة وإما بالقسم, فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة, فقال: {قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ} [يونس: 53], {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ} [آل عمران: 18].

ولا يكون القسم إلا باسم معظم, وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع: {فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ} [الذاريات: 23], {قُلْ إِي وَرَبِّي} [يونس: 53], {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ} [التغابن: 7], {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ} [مريم: 68], {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ} [الحجر: 92], {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [النساء: 65], {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} [المعارج: 40].

والباقي كله قسم بمخلوقاته, كقوله تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} [التين: 1], {وَالصَّافَّاتِ} [الصافات: 1], {وَالشَّمْسِ} [الشمس: 1], {وَاللَّيْلِ} [الليل:1], {وَالضُّحَى} [الضحى: 1], {فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} [التكوير: 15].

فإن قيل: كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير الله؟

قلنا: أجيب عنه بأوجه:

منها: إن هذا خاص بالله جل جلاله وهو الإله المعبود, يقسم بما شاء من خلقه, ولا يصح لغير الله جل جلاله.

قال الحسن: إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله.

وقال العلماء: أقسم الله تعالى بالنبيِّ صلّى الله عليه وسلَّم في قوله: {لَعَمْرُكَ} [الحجر: 72], لتعرف الناس عظمته عند الله, ومكانته لديه.

ثم هو سبحانه وتعالى يقسم على أصول الإيمان التي تجب على الخلق معرفتها, وتارة يقسم على التوحيد, وتارة يقسم على أن

القرآن حقٌّ, وتارة على أن الرسول حقٌّ, وتارة على الجزاء والوعد والوعيد, وتارة على حال الإنسان.

قاعدة في جدل القرآن

اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة, وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به, لكن أورده على عادة العرب, دون دقائق طرق المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قاله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: 4].

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجلي من الكلام, فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون, ولم يكن ملغزًا, فأخرج تعالى مخاطباته في محاجّة خلقه في أجلى صورة, ليفهم العامّة من جليّها ما يقنعهم وتلزمهم الحجّة, وتفهم الخواص من أثنائها ما يربي على ما أدركه فهم الخطباء.

ومن أمثلة ذلك أنه استدل سبحانه وتعالى على المعاد الجسمي بضروب:

أحدها: قياس الإعادة على الابتداء: كما قال تعالى: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: 29], {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [الأنبياء: 104], {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ} [ق: 15].

ثانيها: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى: قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ} [يس: 81].

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات.

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر, وقد روى الحاكم وغيره أن أبي بن خلف جاء بعظم ففتَّه, فقال: أيحيي الله هذا بعد ما بلي ورَمَّ؟ فأنزل الله: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} [يس: 79], فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى, والجمع بينهما بعلة الحدوث, ثم زاد في الحجاج بقوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا} [يس: 81], وهذه في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره, والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما.

ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد, بدلالة التمانع المشار إليها في قوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: 22], لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام, ولا يتّسق على إحكام, ولكان العجز يلحقهما أو أحدَهما, وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته, فإماتته أن تنفذ إرادتهما

فيتناقض لاستحالة تجزّي الفعل إن فرض الاتّفاق, أو الامتناع لاجتماع الضدّين إن فرض الاختلاف, وإما ألا تنفذ إرادتهما, فيؤدي إلى عجزهما, أو لا تنفذ إرادة أحدهما, فيؤدي إلى عجزه, والإله لا يكون عاجزًا.

ما وقع في القرآن من الأسماء والكنى والألقاب

في القرآن من أسماء الأنبياء والمرسلين خمس وعشرون, وهم مشاهيرهم:

آدم أبو البشر, ونوح, وإدريس, وإبراهيم, وإسماعيل (وهو أكبر ولد إبراهيم), وإسحاق (ولد بعد إسماعيل بأربع عشرة سنة), ويعقوب (عاش مائة وسبعًا وأربعين سنة), ويوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم, ولوط, قال ابن إسحاق: هو لوط بن هاران بن آزر, وهود, وصالح, وشعيب, وموسى, وهارون, وداود, وسليمان ولده, وأيوب, وذو الكفل, ويونس, وإلياس, واليسع, وزكريا, ويحيى ولده, وعيسى, ومحمّد, عليه وعليهم الصلاة والسلام.

أسماء الملائكة: وفيه من أسماء الملائكة:

جبريل, وميكائيل, ومالك خازن جهنّم, وهاروت, وماروت (على خلاف فيهما).

أسماء الصحابة وغيرهم:

وفيه من أسماء الصحابة: زيد بن ثابت.

وفيه من أسماء المتقدّمين غير الأنبياء والرسل: عمران أبو مريم, وعُزَير, وتُبَّع, ولقمان, ويوسف الذي في سورة غافر, ويعقوب في أول سورة مريم (على قول), وتَقي في قوله فيها: {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا} [مريم: 18]. قيل: إنه اسم رجل كان من أمثل الناس, أي إن كنت في الصلاح مثل تقي, حكاه الثعلبي.

وفيه من أسماء النساء: مريم لا غير, وقيل: إن بعلاً في قوله: {أَتَدْعُونَ بَعْلاً} [الصافات: 125], اسم امرأة كانوا يعبدونها, حكاه ابن عساكر.

وفيه من أسماء الكفار: قارون, وآزر, وجالوت, وهامان.

وفيه من أسماء الجن: أبوهم إبليس.

وفيه من أسماء القبائل: يأجوج ومأجوج, وعاد, وثمود, ومدين, وقريش, والروم.

وفيه من الأقوام بالإضافة: قوم نوح, وقوم لوط, وقوم تبَّع, وقوم إبراهيم, وأصحاب الأيكة (وقيل: هم مدين), وأصحاب الرس (وهم بقية من ثمود) قاله ابن عباس, وقال عكرمة: هم أصحاب ياسين, وقال قتادة: هم قوم شعيب, وقيل: هم أصحاب الأخدود, واختاره ابن جرير.

وفيه من أسماء الأصنام التي كانت أسماء لأناس: ود, وسواع, ويغوث, ويعوق, ونسر(وهي أصنام قوم نوح), واللات والعزى ومناة (وهي أصنام قريش) وكذا الرجز فيمن قرأ بضم الراء, ذكر الأخفش في كتاب "الواحد والجمع" أنه اسم صنم, والجبت, والطاغوت, وبعل.

وفيه من أسماء البلاد والبقاع والأمكنة والجبال: بكة (اسم مكة), والمدينة, وبدر, وأحد, وحنين, والمشعر الحرام, ومصر, وبابل, والأيكة, والحجر, والأحقاف, وطور سينا, والجودي, وطوى (اسم الوادي), والكهف, والرقيم, والعرم, وحرد, والصريم, وأخرج ابن جبير عن سعيد بن جبير أنها أرض باليمن تسمى بذلك, وق (وهو جبل محيط بالأرض), والجرز (هو اسم الأرض), والطاغية (قيل: اسم البقعة التي أهلكت بها ثمود), حكاهما الكرماني.

وفيه من أسماء الأماكن الأخروية: الفردوس (وهو أعلى مكان في الجنة), وعلّيّون (قيل: أعلى مكان في الجنة), والكوثر (نهر في الجنة), وسلسبيل وتسنيم (عينان في الجنة), وسجّين (اسم لمكان أرواح الكفار), وصعود (جبل في جهنم) كما أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعًا, وغي, وأثام, وموبق, والسعير, وويل, وسائل, وسحق (أودية في جهنم), ويحموم (دخان أسود).

وفيه من أسماء الكواكب: الشمس, والقمر, والطارق, والشعرى, قال بعضهم: سمى الله في القرآن عشرة أجناس من الطير: السلوى, والبعوض, والذباب, والنحل, والعنكبوت, والجراد, والهدهد, والغراب, وأبابيل, والنمل.

أما الكنى فليس في القرآن منها غير أبي لهب, واسمه عبد العزّى.

مفردات القرآن

المفردات: جمع مفرد والمراد به**:** الآية الفريدة الجامعة لمعاني موضوعها, من عقيدة أو أخلاق أو وصية أو حِكَم, وبهذا تكون تلك الآية منفردة بمزايا ليست في غيرها.

ومنه قول ابن مسعود: أعظم آية في القرآن: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: 255], وأحكم آية: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى} [النحل: 90]. وأجمع آية: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ, وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزة: 7-8], وأحزن آية: {مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: 123], وأرجى آية: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ} الآية [الزمر: 53].

وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} [فصلت: 30]. وقال أبو برزة ألأسلمي: أشد آية في كتاب الله تعالى على أهل النار: {فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا} [النبأ: 30], وقال بعضهم: أطول سورة في القرآن البقرة, وأقصرها الكوثر, وأطول آية فيه آية الدَّين, وأقصر آية فيه: والضحى, والفجر, وأطول كلمة فيه رسمًا: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} [الحجر: 22], وفي القرآن آيتان جمعت كل منهما حروف القرآن: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً} الآية [آل عمران: 54], {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ} الآية [الفتح: 29].

وليس فيه حاء بعد حاء بلا حاجز إلا في موضعين: {عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ} [البقرة: 235], {لا أَبْرَحُ حَتَّى} [الكهف: 60], ولا كافان كذلك إلا {مَّنَاسِكَكُمْ} [البقرة: 200]، {مَا سَلَكَكُمْ} [المدثر: 42], ولا غينان كذلك إلا {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ} [آل عمران: 85], ولا آية فيها ثلاثة وعشرون كافًا إلا آية الدَّين, ولا آيتان فيهما ثلاثة عشر وقفًا إلا آيتا المواريث, ولا سورة ثلاث آيات فيها عشر واوات إلا والعصر إلى آخرها, ولا سورة إحدى وخمسون آية فيها اثنان وخمسون وقفًا إلا سورة الرحمن.

الآيات المبهمات

اعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض, ونحن نذكر أهم ما ورد في ذلك:

قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: 30] هو آدم وزوجه حواء.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ} [البقرة: 204] هو: الأخنس بن شريق.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ} [البقرة: 207] هو: صهيب.

{مِّنْهُم مَّن كَلَّم الله} [البقرة: 253] قال مجاهد: موسى.

{وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [البقرة: 253] قال: محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم.

{امْرَأَةُ عِمْرَانَ} [آل عمران: 35] حنة بنت فاقوذ.

{مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ} [آل عمران: 193] هو محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم.

{وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ} [النساء: 100] هو: ضمرة بن جندب.

{وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} [الأنفال: 48] عنى سراقة بن جعشم.

{إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ} [التوبة: 40] هو: أبو بكر الصدّيق.

{وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي} [التوبة: 49] هو: الجَدُّ بن قيس.

{وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة: 58] هو: ذو الخويصرة.

{إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ} [التوبة: 66] هو: مخشي بن حمير.

{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ} [التوبة: 75] هو: ثعلبة بن حاطب.
{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ} [التوبة: 102] هم سبعة: أبو لبابة, وأصحابه, وجد بن قيس, وجذام, وأوس, وكردم, ومرداس.
{وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ} [التوبة: 106] هم: هلِّال بن أمية, ومرارة بن الربيع, وكعب بن مالك, وهم الثلاثة الذين خلّفوا.
{إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} [الحجر: 95]. قال سعيد بن جبير: هم خمسة: الوليد بن المغيرة, والعاصي بن وائل, وأبو زمعة, والحارث بن قيس, والأسود بن عبد يغوث.
{هَذَانِ خَصْمَانِ} [الحجر: 19] أخرج الشيخان عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية في حمزة وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة.
{امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ} [النمل: 23] هي: بلقيس بنت شراحيل.
{قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ} [المجادلة: 1] هي: خولة بنت ثعلبة {فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: 1] أوس بن الصامت.
{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [المدثر: 11] هو: الوليد بن المغيرة.
أسباب الإبهام في القرآن: وللإبهام في القرآن أسباب:
أحدها: الاستغناء ببيانه في موضع آخر: كقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [الفاتحة: 7] فإنه مبيّن في قوله: {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ} [النساء: 69].
الثاني: أن يتعين لاشتهاره: كقوله: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة: 35]. ولم يقل حواء, لأنه ليس له غيرها.
الثالث: قصد الستر عليه ليكون أبلغ في استعطافه: نحو: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الآية [البقرة: 204] هو الأخنس بن شريف, وقد أسلم بعدُ وحسُن إسلامه.
الرابع: ألا يكون في تعيينه كبير فائدة: نحو: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ} [البقرة: 259], {واسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ} [الأعراف: 163].
الخامس: التنبيه على العموم: وأنه غير خاص, بخلاف ما لو عُيِّن, نحو: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا} [النساء: 100].

تفسير القرآن وتأويله وبيان الحاجة إليه

واختلف في التفسير أو التأويل, فقال أبو عبيد وطائفة: هما بمعنى.
وقال الراغب: التفسير أعمُّ من التأويل, وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها, وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل, وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية, والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.
وقال الزركشي: التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم, وبيان معانيه, واستخراج أحكامه وحكمه, واستمداد ذلك من علم اللغة, والنحو, والتصريف, وعلم البيان, وأصول الفقه, والقراءات, ويحتاج لمعرفة أسباب النزول

والناسخ والمنسوخ, وأما شرفه فلا يخفى, قال تعالى: {يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: 269].

عن ابن عباس في قوله: {يؤتي الحكمة} قال: المعرفة بالقرآن, ناسخه ومنسوخه, ومحكمه ومتشابهه, ومقدمه ومؤخره, وحلاله وحرامه, وأمثاله.

وأخرج أبو ذر الهروي في "فضائل القرآن" من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الذي يقرأ القرآن ولا يحسن تفسيره, كالأعرابي يهذّ الشعر هذًّا.

وأخرج البيهقي وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه.

وأخرج ابن الأنباري, عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه قال: لأن أعرب آية من القرآن أحبّ إليَّ من أن أحفظ آية.

وأخرج أيضًا عن عبد الله بن بريدة, عن رجل من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلَّم قال: لو أني أعلم إذا سافرت أربعين ليلة أعربت آية من كتاب الله لفعلت.

وأخرج أيضًا من طريق الشعبي قال: قال عمر: من قرأ القرآن فأعربه, كان له عند الله أجر شهيد.

قال السيوطي: معنى هذه الآثار عندي إرادة البيان والتفسير, لأن إطلاق الإعراب على الحكم النحوي اصطلاح حادث, ولأنه كان في سليقتهم لا يحتاجون إلى تعلمه.

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن, فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث, أما من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة, ومعدن كل فضيلة, فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم, لا يخلق على كثرة الرد, ولا تنقضي عجائبه, وأما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى, والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى, وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجلي أو آجلي, مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية, وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.

أمهات مآخذ التفسير

أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن النبي صلّى الله عليه وسلَّم: وهذا هو الطراز المعلم, لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع, فإنه كثير, ولهذا قال أحمد: ثلاث كتب لا أصل لها: المغازي, والملاحم, والتفسير, قال المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة, وإلا فقد صح من ذلك كثير, كتفسير الظلم بالشرك في آية الأنعام, والحساب اليسير بالعرض والقوة بالرمي في

قوله: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} [الأنفال: 60], قال السيوطي مستدركًا على هذا الكلام الذي قرره الزركشي: الذي صح من ذلك قليل جدًا, بل أصل المرفوع منه في غاية القلة.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي: فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم, كما قاله الحاكم في "مستدركه".

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة: فإن القرآن نزل بلسان عربي, وهذا قد ذكره جماعة, ونص عليه أحمد في مواضع, لكن نقل الفضل بن زياد عنه أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر, فقال: ما يعجبني, فقيل: ظاهره المنع, ولهذا قال بعضهم: في جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد, وقيل: الكراهة تحمل على صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة, يدل عليها القليل من كلام العرب, ولا يوجد غالبًا إلا في الشعر ونحوه, ويكون المتبادر خلافها.

الرابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع: وهذا هو الذي دعا به النبي صلّى الله عليه وسلّم لابن عباس حيث قال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل, والذي عناه علي بقوله: إلا فهمًا يؤتاه الرجل في القرآن, ومن هنا اختلف الصحابة في معنى الآية, فأخذ كل برأيه على منتهى نظره, ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل, قال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: 36], وقال: {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 169], وقال: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: 44] فأضاف البيان إليه, وقال صلّى الله عليه وسلّم: (من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي, وقال: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) أخرجه أبو داود.

قال البيهقي في الحديث الأول: هذا إن صح فإنما أراد, والله أعلم, الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه, وأما الذي يشدّه برهان فالقول به جائز.

وقال الماوردي: قد حمل بعض المتورّعة هذا الحديث على ظاهره وامتنع من أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده, ولو صحبتها الشواهد ولم يعارض شواهدها نص صريح, وهذا عدول عما تعبِّدنا بمعرفته من النظر في القرآن واستنباط الأحكام, كما قال تعالى: {لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: 83] ولو صح ما ذهب إليه لم يُعلم شيء بالاستنباط, ولما فهم الأكثرون من كتاب الله شيئًا, وإن صح الحديث فتأويله أن من تكلم في القرآن بمجرد رأيه, ولم يعرج على سوى لفظه وأصاب الحق, فقد أخطأ الطريق, وإصابته اتفاق, إذ الغرض أنه

مجرد رأي لا شاهد له, وفي الحديث: (القرآن ذلول ذو وجوه, فاحملوه على أحسن وجوهه) أخرجه أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس.

فقوله: (ذلول) يحتمل معنيين:

- أحدهما: أنه مطيع لحامليه تنطق به ألسنتهم.
- والثاني: أنه موضح لمعانيه حتى لا تقصر عنه أفهام المجتهدين.

وقوله: (ذو وجوه) يحتمل معنيين:

- أحدهما: أن من ألفاظه ما يحتمل وجوهًا من التأويل.
- والثاني: أنه قد جمع وجوهًا من الأوامر والنواهي, والترغيب والترهيب, والتحليل والتحريم.

وقوله: (فاحملوه على أحسن وجوهه) يحتمل معنيين:

- أحدهما: الحمل على أحسن معانيه.
- والثاني: أحسن ما فيه من العزائم دون الرخص, والعفو دون الانتقام, وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد في كتاب الله تعالى.

ومنهم من قال: يجوز تفسيره لمن كان جامعًا للعلوم التي يحتاج المفسر إليها.

طبقات المفسرين

تفسير الصحابة:

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة, وابن مسعود, وابن عباس, وأبي بن كعب, وزيد بن ثابت, وأبو موسى الأشعري, وعبد الله بن الزبير.

أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب, والرواية عن الثلاثة نزرةٌ جدًا, وكأن السبب في ذلك تقدم وفاتهم, كما أن ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر رضي الله عنه للحديث, ولا يُحفظ عن أبي بكر رضي الله عنه في التفسير إلا آثار قليلة جدًا لا تكاد تجاوز العشرة, وأما عليٌّ رضي الله عنه فروي عنه الكثير, وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل, قال: شهدت عليًا يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألونني عن شيء إلا أخبرتكم, وسلوني عن كتاب الله, فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم, أبليل نزلت أم بنهار, أم في سهل أم في جبل.

وأخرج أبو نعيم في "الحلية" من طريق أبي بكر بن عياش عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت, وأين أنزلت, إنَّ ربِّي وهب لي قلبًا عقولاً, ولسانًا سؤولاً.

وأما ابن مسعود رضي الله عنه فروي عنه أكثر مما روي عن علي رضي الله عنه, وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال: والذي لا إله

غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت, وأين نزلت, ولو أعلم مكان أحد أعلمِ بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته.

وأخرجه أبو نعيم عن أبي البختري, قال: قالوا لعلي: أخبرنا عن ابن مسعود, قال: علم القرآن والسنَّة, ثم انتهى, وكفى بذلك علمًا.

وأما ابن عباس رضي الله عنهما فهو ترجمان القرآن الذي دعا له النبي صلّى الله عليه وسلَّم: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل, وقال أيضًا:اللهم آتِه الحكمة, وفي رواية: اللهم علمه الحكمة.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعبد الله بن عباس, فقال: اللهم بارك فيه وانشر منه.

واخرج أبو نعيم من طريق عبد المؤمن بن خالد عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس قال: انتهيت إلى النبي صلّى الله عليه وسلَّم وعنده جبريل, فقال له جبريل: إنه كائنٌ حبرَ هذه الأمة, فاستوصِ به خيرًا.

وأخرج من طريق عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب عن مجاهد قال: قال ابن عباس: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم: نعم ترجمان القرآن أنت.

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: نِعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس.

وأخرج أبو نعيم عن مجاهد قال: كان ابن عباس يُسمى البحر, لكثرة علمه.

وأخرج عن ابن الحنفية قال: كان ابن عباس حبرَ هذه الأمة.

وأخرج عن الحسن قال: إن ابن عباس كان من القرآن بمنزل, كان عمر رضي الله عنه يقول: ذاكم فتى الكهول, إنه له لسانًا سؤولاً, وقلبًا عقولاً.

وأخرج البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر, فكأن بعضهم وجد في نفسه, فقال: لم يدخل هذا معنا, وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر رضي الله عنه: إنه من حيث علمتم. فدعاهم ذات يوم, فأدخله معهم, فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم, فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: 1]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا, وسكت بعضهم ولم يقل شيئًا, فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا, فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم أعلمه له, فقال: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: 1] فذلك علامة أجلك {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: 3] فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

طبقة التابعين:

قال ابن تيمية: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة, لأنهم أصحاب ابن عباس, كمجاهد, وعطاء بن أبي رباح, وعكرمة مولى ابن عباس, وسعيد بن جبير, وطاووس, وغيرهم, وكذلك في الكوفة أصحاب ابن مسعود, وعلماء أهل المدينة في التفسير, مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد, ومالك بن أنس, اهـ.

فمن المبرّزين منهم: مجاهد, قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهدًا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.

وعنه أيضًا قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات, أقف عند كل آية منه, وأسأله عنها: فيم نزلت؟ وكيف كانت؟

وقال خصيف: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد.

وقال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

قال ابن تيمية: ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم.

قال السيوطي: وغالب ما أورده الفريابي في "تفسيره" عنه, وما أورده فيه عن ابن عباس أو غيره قليل جدًا.

ومنهم: سعيد بن جبير, قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير, ومجاهد, وعكرمة, والضحاك.

وقال قتادة: كان أعلمَ التابعين أربعةٌ: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك, وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير, وكان عكرمة أعلمهم بالسِّيَر, وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام.

ومنهم: عكرمة مولى ابن عباس, قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة, وقال سماك بن حرب: سمعت عكرمة يقول: لقد فسَّرت ما بين اللوحين.

ومنهم: الحسن البصري, وعطاء بن أبي رباح, وعطاء بن أبي سلمة الخراساني, ومحمد بن كعب القرظي, وأبو العالية, والضحاك بن مزاحم, وعطية العوفي, وقتادة, وزيد بن أسلم, ومرة الهمداني, وأبو مالك, ويليهم الربيع بن أنس, وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في آخرين.

فهؤلاء قدماء المفسرين, وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة.

ثم بعد هذه الطبقة أُلِّفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين, كتفسير سفيان بن عيينة, ووكيع بن الجراح, وشعبة بن الحجاج, ويزيد بن هارون, وعبد الرزاق, وآدم بن أبي إياس, وإسحاق بن راهويه, وروح بن عبادة, وعبد بن حميد, وسنيد, وأبي بكر بن أبي شيبة, وآخرين.

وبعدهم: ابن جرير الطبري, وكتابه أجل التفاسير وأعظمها, ثم ابن أبي حاتم, وابن ماجه, والحاكم, وابن مردويه, وأبو الشيخ بن

حبان, وابن المنذر في آخرين, وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم. وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير, فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض, والإعراب, والاستنباط. فهو يفوقها بذلك.

ثم أَلَّف في التفسير خلائق, فاختصروا الأسانيد, ونقلوا الأقوال بتراء, فدخل من هنا الدخيل, والتبس الصحيح بالعليل, ثم صار كل من يسنح له قول يورده, ومن يخطر بباله شيء يعتمده, ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده, ظانًا أن له أصلاً, غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح, ومن يُرجَع إليهم في التفسير.

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم, فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه, فالنحوي تراه ليس له هَمٌّ إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه, ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته, كالزجاج, والواحدي في "البسيط" وأبي حيان في "البحر والنهر".

والأخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها والأخبار عمن سلف, سواء كانت صحيحة أو باطلة, كالثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد, وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية, والجواب عن أدلة المخالفين, كالقرطبي.

وصاحب العلوم العقلية, خصوصًا الإمام فخر الدين, قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها, وخرج من شيء إلى شيء, حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية, قال أبو حيان في "البحر": جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير, ولذلك قال بعض العلماء: فيه كلُّ شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد, بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها, أو وجد موضعًا له فيه أدنى مجال سارع إليه: قال البلقيني: استخرجت من "الكشاف" اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى في تفسير: {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: 185] وأي فوز أعظم من دخول الجنة, أشار به إلى عدم الرؤية.

قال السيوطي: فإن قلت: فأي التفسير ترشد إليه, وتأمر الناظر أن يعوّل عليه؟ قلت: تفسير الإمام أبي جعفر بن جرير الطبري الذي أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله.

قال النووي في "تهذيبه": كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنِّف أحدٌ مثلَه.

وصلى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم.